مقدمات لدراسة

البيان الشيوعي

منشورات موقع " 30 غشت "

www.30aout.info

مقدمات لدراسة البيان الشيوعي

مارس 2016

محاور الكتاب

I ـ المقدمات التاريخية: أهم مراحل تطور الفكر الماركسي قبل صدور البيان الشيوعي

الفترة الأولى

أ ـ لحظة المخاض الأولى

ب ـ لحظة المخاض الثانية: سيرورة الانتقال إلى الفكر الشيوعي أو الالتحاق النهائي بصف البروليتاريا

الفترة الثانية

1 – ماركس ـ انجلس وقيادة النضال الثوري للبروليتاريا

أ ـ تأسيس اللجان الشيوعية للمراسلة (**Comités de correspondance communiste**)

ب ـ خبرة النشاط السياسي داخل لجنة بروكسيل

ج ـ دروس النضال الإيديولوجي ضد الفكر البرجوازي الصغير

ج / 1 ـ في مواجهة أنصار الشيوعية الحرفية

ج / 2 ـ ضد "الاشتراكية الصحيحة"

ج / 3 ـ مناظرة باريس وهزيمة الفكر البورجوازي الصغير

2 ـ من عصبة العادلين إلى العصبة الشيوعية

أ ـ الوضع الداخلي للعصبة والتحاق ماركس وانجلس بها

ب ـ المؤتمر التأسيسي للعصبة الشيوعية

II – البيان الشيوعي ومقولة الصراع الطبقي

1 ـ المجتمع العبودي

2 ـ المجتمع الإقطاعي

3 ـ المجتمع البرجوازي أو الرأسمالي

أ ـ البرجوازية

ب ـ البروليتاريا

1 ـ البرجوازية: ظروف النشأة وعوامل التطور

أ ـ النشأة

ب ـ عوامل التطور

ج ـ النتائج

د ـ التطور الاجتماعي والسياسي للبرجوازية

2 ـ البروليتاريا: تعريفها ، نشأتها ، تطورها ونضالها

أ ـ من حيث تعريفها

ب ـ نشأة النضال البروليتاري ومراحله: من التشتت إلى الوحدة الطبقية

III – البروليتاري والشيوعي: أية علاقة ؟

1 ـ المبادئ العامة المؤطرة للنضال الشيوعي

2 ـ الأهداف العامة للنضال الشيوعي

البيان الشيوعي

www.30aout.info

مقدمات لدراسة البيان الشيوعي

يمثل "البيان الشيوعي" هذا "الكتيب الذي يساوي مجلدات" حسب تعبير لينين ، أول وثيقة برنامجية للبروليتاريا العالمية وحزبها الثوري. صاحبا الكراس هما كارل ماركس (Karl Marx) وفريدريك انجلس Frederich Engels)) المناضلان الثوريان الأمميان اللذان جمعهما درب النضال الاشتراكي الثوري ، فتخندقا في الصفوف الأولى للنضال البروليتاري ، وانصهرت في خضمه أواصر الصداقة والتضامن التي جمعتهما إلى الأبد. ولا غرو ، فقد كانت قائمة على المبادئ الثورية الصارمة ، وعلى الروح النقدية الرفاقية المتفتحة.

وقد شكل "البيان الشيوعي" عند صدوره سنة **1848** محطة جديدة في تطورهما الفكري والسياسي ، سبقتها محطات أخرى.

وإدراكا منا ، لقيمة هذا الكتيب ، الذي يجب على كل مناضلة ومناضل أن يدرسه ، وتسهيلا للفهم والاستيعاب ، الذي نؤكد على ضرورة ربطه بالممارسة النضالية ، ستعمل هذه المقدمات على إبراز أهم محطات هذا المسار – المخاض الذي تولدت منه الماركسية في بداياتها الأولى دون إغفال لأهم المحاور الفكرية في "البيان الشيوعي".

إن المتتبع لسيرورة تطور الفكر الماركسي منذ نشأته ، وإلى حدود صدور "البيان الشيوعي" سنة **1848** ، تستوقفه علامتان بارزتان يمكن اعتمادهما في تحقيب هذه المرحلة الغنية بالتوترات الفكرية والنضالية التي حصلت تحت تأثير مشكلات سياسية ، إيديولوجية واجتماعية هزت ألمانيا مسقط رأس كل من ماركس وانجلس. وقد اجتاحت كذلك هذه المشكلات القارة العجوز (أوربا) ، عاصرها مؤسسا الشيوعية العلمية من موقع الانخراط والالتزام ، اللذين وضعهما فيه حسهما النضالي المتأجج باستمرار ، وفكرهما النقدي الثاقب والنفاذ إلى جوهر الأشياء.

I – المقدمات التاريخية: أهم مراحل تطور الفكر الماركسي قبل صدور البيان الشيوعي

من الناحية المنهجية نتقدم بتقسيم للمرحلة (العشر سنوات الما – قبل صدور البيان الشيوعي) إلى فترتين: الأولى تمتد إلى حدود سنة **1846** ، والأخرى إلى حدود **1848**.

الفترة الأولى:

ماركس – انجلس من نهاية الثلاثينات إلى حدود عامي **1845 – 1846**.

أ – لحظة المخاض الأولى:

كانت فترة مخاض إيديولوجي هائل انتهت بصياغة كتابهما المشترك: "الإيديولوجية الألمانية" وهذا يعني من الناحية التاريخية أنهما قد أصبحا مرتبطين بالنظرية المادية التاريخية والجدلية. وكان ماركس وانجلس قد توصلا بالفعل إلى اتفاق تام في وجهة نظرهما. ويقول انجلس عن هذه الفترة: "وكان من واجبنا أن نوفر أساسا علميا لنظريتنا ، لكنه كان لا يقل أهمية عن ذلك بالنسبة إلينا أن نكسب إلى صفنا البروليتاريا الأوربية ، وفي المحل الأول البروليتاريا الألمانية". إذن كان تأليفهما المشترك ل "الإيديولوجية الألمانية" علامة بارزة في تطورهما الإيديولوجي.

وقد حصل هذا التحول عند ماركس خاصة تحت التأثير المتناوب للتامل والتحليل. في هذه الفترة كانت معلومات ماركس عن الوقائع الاقتصادية والاجتماعية ناقصة. كان التكوين الأصلي لديه فلسفيا وحقوقيا. ومع ذلك ساعده التامل في التقدم على المستوى الإيديولوجي.

وكما هو معروف ، كان ماركس في بداية نشاطه السياسي ينتمي إلى تيار "الهيجليين اليساريين" وكانت ألمانيا آنذاك غير موحدة. وكانت بروسيا إحدى أهم إمارات ألمانيا المجزأة حيث كان نظام الحكم فيها استبداديا ، لا يوفر أية وسيلة عمل فعلية للنضال المباشر. مما كان يدفع أبرز مناضلي التيار الهيجيلي اليساري ، ومن بينهم ماركس ، إلى ممارسة هذا النشاط على الصعيد الفلسفي. والفلسفة هي المجال الوحيد الذي لم تكن تتدخل فيه الحكومة البروسية بشكل سافر. وقد نشأ عن هذا الوضع ، اعتقاد لدى أعضاء تيار "الهيجليين اليساريين" مفاده: أن تغيير الوضع القائم في ألمانيا سيتم بمجرد التعاطي النقدي مع هذا الواقع وكان أساس هذا الاعتقاد يعود إلى تاثير مذهب هيجل (1770 — 1831) الذي كان نظامه الفلسفي المثالي يعتبر أن تطور الفكر ينظم سير التاريخ. كان الطرح الهيجيلي يقوم على تصور يعتبر أن الفكرة المطلقة (خالقة العالم) هي ذات وموضوع في آن واحد. وهي في مجرى تطورها مرتبطة بالعالم بشكل لا انفصام فيه. وقياسا على ذلك تأخذ الحركة الجدلية لديه طابعا موضوعيا يستحيل معه تغيير هذه الحركة بمجرد فعل إرادي ذي طابع ذاتي. وهنا ينحصر دور الفيلسوف في فهم سيرورة التاريخ ليس إلا. هذه النظرية كانت تسقط في نوع من الجبرية المثالية. وطبيعي ، أن يتعارض هذا الطرح المثالي الموضوعي مع رغبة الهيجيليين الشباب في العمل من أجل التغيير. لذلك سيعمدون إلى تكييف الهيجلية مع رغبتهم هاته بالعودة إلى فيخته (1762 — 1814) Fichte. كان فيخته على خلاف هيجل ، يرى أن تطور التاريخ ليس نتاجا للحركة الجدلية ل "الفكرة المطلقة" بل هو نتاج التعارض المستمر بين الأنا (يعني بها الإنسان) واللا أنا (أي العالم).

هكذا وجد الهيجليون الشباب ضالتهم في فكر فيخته. فاستبدلوا "الفكرة المطلقة" لهيجل بالوعي الشامل الذي يتقدم ويتطور عن طريق النقد المتواصل للواقع... لقد وقع إذن استبدال لجدلية هيجل المثالية الموضوعية بل والجبرية ، بجدلية ذات طابع أكثر ذاتية أي هناك إضافة وإقرار للجدل الذاتي (الوعي والإرادة) في عملية التغيير. من الناحية الواقعية كان موقف هيجل ينطلق من أطروحته حول الحرية المقترنة بالضرورة: "ليس ثمة حرية بدون ضرورة" ويعني بها أن فكرة كل تقدم عن طريق الحرية لا يمكن أن يتم إلا في إطار وفي شروط الوضع التاريخي المحدد. عمليا كان هيجل على معرفة بضعف البرجوازية الألمانية - كانت هذه الأخيرة في طور التكون بمظهرها الهش والضعيف - ، لذا كان يرى أنه لكي تنتصر مطالبها (أي المطالبة بإصلاح الدولة البروسية في اتجاه ليبرالي) قدر الإمكان ، عليها أن لا تدخل في صراع مكشوف ضد الأقلية الحاكمة وضد الكنيسة التي تدعمها. بل عليها أن تعترف بشرعيتهما ، وهذا ما فعله هيجل بتبريره من وجهة نظر العقل لهذه الأقلية الحاكمة وللكنيسة. لقد كان موقفا متخاذلا.

كان رد فعل الهيجليين الشباب رافضا لهذا الموقف ، فانصبت كتاباتهم على نقد الدين وموقف الدولة من الدين. ففي ايام كيوم IV كانت المسيحية هي دين الدولة بألمانيا.

كان هذا هو الإطار الإيديولوجي الذي انخرط فيه ماركس حيث كان يتموقع كديمقراطي جذري على يسار التيار المنتمي إليه أي تيار "الهيجليين الشباب".

وكما هو معلوم فقد كان ماركس حاصلا على دكتوراه في الفلسفة تمحور بحثها حول فلسفتي أبيقور وديموقريطس وهذا ما ساعده على إدراك مبكر ل"فلسفة وعي الذات" وإن كان ذلك قد حصل من وجهة نظر تأملية صرفة. لكن تحليله المعمق للموضوع سيقوده إلى تقدم كبير على المستوى الإيديولوجي ، سيبتعد به عن الهيجليين الشباب.

وقد حصل ذلك عنده في نقطتين هامتين هما

1 — إقراره لأبيقور محاولته إنقاذ الحرية الإنسانية ضدا على حتمية ديموقريطس.

2 — رفضه لفكرة أبيقور حول الحرية ، التي كانت ، حسب هذا الأخير ، لا تنشأ من فعل الإنسان على العالم ، بل من

عزلته عنه. وهذا ما اعتبره ماركس تكريسا لعجز الإنسان وسقوطا في نوع من الانعزالية الصوفية.

وكان لذلك ، بالغ الأثر على المسار الذي سيفتتحه ماركس في حياته النضالية. فعندما اشتد قمع الدولة البروسية الاستبدادية ، انسحب جل الهيجليين اليساريين من النضال السياسي ، وبرروا ذلك بتمجيدهم للنزعة الفردية الفوضوية.

وقد كان لماركس موقف آخر أدان من خلاله هذا السلوك اللاأخلاقي.

كان ماركس ذا إلمام كبير بفلسفة هيجل ، حيث تعامل معها باعتبارها وحدة متناقضة تجمع نظاما فلسفيا ذا نزعة محافظة مكرسة للواقع. واحتوائها في نفس الوقت على نواة جدلية سيعمل على تخليصها من طابعها المثالي ويجعلها جدلا ماديا.

عند هذا الحد كان ماركس قد استفاد من هيجل من حيث أنه تشبع بأربع أفكار أساسية كان لها الأثر الكبير على تطوره الإيديولوجي ويمكن اختزالها فيما يلي:

1 ـ إقراره بضرورة الوحدة بين الفكر والعالم. هذه الوحدة نظر إليها ماركس من زاوية مخالفة لهيجل لما أصبح ماديا.

2 ـ تبنيه للفكرة الهيجلية التي نظرت إلى التاريخ باعتباره تناوبا للمراحل.

3 ـ هكذا استفاد ماركس من فكرة هيجل حول تميز المراحل:

أ ـ مراحل يكون فيها توافق بين الفكر والعالم.

ب ـ مراحل لا يكون فيها هذا التوافق حيث يصير العالم لا عقلانيا.

ج ـ المرحلة الأخيرة (اللا توافق بين الفكر والعالم) يتولد فيها فعل الفكر على العالم في اتجاه ، ومن أجل عقلنته ، و إعادة تحقيق الوحدة بين الفكر والعالم.

ب – لحظة المخاض الثانية: سيرورة الانتقال إلى الفكر الشيوعي أو الالتحاق النهائي بصف البروليتاريا.

لقد كانت الصحافة الوسيلة الوحيدة التي توفر عملا ممكنا لكارل ماركس. وهكذا انخرط هذا الأخير في العمل الصحفي كرئيس تحرير للجريدة الرينانية (**gazette Rhenane**) . وكانت مواقفه كديمقراطي ثوري أكثر دعما لفئات الشعب المضطهدة منها للبرجوازية الليبرالية. وكان تصوره يقوم على نظرة للتاريخ الراهن آنذاك ترى أن تطوره (أي التاريخ) سيكون محصلة للصراع بين الديمقراطية والقوى الرجعية السائدة. ولأنه كان لا يزال تحت تاثير الفكر الهيجيلي ، فقد تصور أن مؤدى هذا الصراع سيكون تحقيق الدولة الهيجيلية (أي تصور هيجل للدولة) كتجسيد أعلى للحياة الأخلاقية.

وقد قاده عمله في الجريدة إلى التطرق لقضايا متعددة ودراسة الفكر الاشتراكي والشيوعي.

وتحت تأثير فلسفة فيورباخ (**1804 — 1872**) القائلة بأن الإنسان ، وبالتالي المجتمع ، قد استلب صفاته في الله ، أعاد ماركس النظر ، من زاوية فلسفية ، في العلاقة بين الأرض والسماء وما تولده من علاقة بين الإنسان والله. وقد وضعه هذا في تعارض مع فكرة هيجل التي كانت تفلسف العلاقة بين المجتمع والدولة معتبرة هذه الأخيرة هي العنصر المحدد والمقرر أي هي التي تصنع المجتمع وليس العكس. وقياسا على فكرة الإنسان استلب صفاته في الله الفيورباخية ، اعتبر ماركس أن المجتمع استلب صفاته في الدولة وبالتالي فالمجتمع هو المحدد والمقرر ، وليس العكس. بهذا المنظور يكون ماركس قد طرح الدولة أرضا ، قالبا العلاقة ليصبح المجتمع هو الذي يخلق الدولة. وتمعن ماركس في هذه الدولة ليجدها دولة البرجوازية ونظامها الاقتصادي القائم على التنافس والملكية الخاصة داخل مجتمع يعيش فيه البشر كأفراد معزولين وأنانيين وغرباء عن طبيعتهم الحقيقية.

إلى هذا الحد ، بدأت أبواب الفكر الاشتراكي والشيوعي تنفتح أمام ماركس ، وإن كان لا يزال على اعتقاده بإمكانية تغيير

المجتمع والدولة بإجراء تحويل ديمقراطي فيهما. وقد دار جدال حاد وسط الهيجليين الشباب فجرته نقاشات حول المسالة اليهودية حيث تصور بوير في كتابه حول الموضوع أن حل المسالة اليهودية لن يكون بدون التحرر من الدين عن طريق الانعتاق السياسي. وقد رد ماركس واضحا ، وهو الباحث عن كيفية تحقيق الانعتاق الكامل للإنسان ، حيث اعتبر أن الانعتاق السياسي بالمعنى الذي طرحه بوير لا يخرج عن إطار المجتمع البورجوازي ، وقد كان ماركس على صواب لأن الرأسمالية على امتداد القرنين 19 و 20 لم تحل المسالة اليهودية ، بل خلقت الظاهرة الصهيونية بويلاتها المعروفة. لقد كان ماركس مقيما في باريس حين أصبح شيوعيا ودفعه انتماؤه ذلك وهو لا يزال تحت تأثير فكر فويرباخ إلى العودة للتامل بطرحه لسؤال التحرر الإنساني أي سؤال الكيف ؟

ومن ثمرة هذا المجهود التأملي كتابه مساهمة في "نقد فلسفة الحق عند هيجل" (1844). الفكرة الجوهرية للكتاب تعتبر نقد الدين الذي تم على طريقة فويرباخ هو نقد ضروري لإثارة وعي الإنسان بطبيعته الحقيقية ، إلا أن هذا النقد غير كاف لتحريره من الاضطهاد الذي يرزح تحته في ظل نظام الملكية الخاصة. ومن وجهة نظر ماركس لم يعد النقد الديني كافيا بل لا بد من استكماله بالنقد الاجتماعي. وقد اعتبر مؤرخو الفكر الماركسي أن هذا النقد الفلسفي بمثابة نقد للمجتمع البوجوازي حتى وإن كانت ألمانيا آنذاك متخلفة اقتصاديا وسياسيا. لقد فتح سلاح النقد الاجتماعي الباب لماركس ليحقق انتقاله إلى الشيوعية.

أمام هذا التراكم الحاصل في الفكر النقدي لدى ماركس ، والذي كانت سيرورته تتحرك بتناقضات البحث عن فلسفة للتغيير الثوري الجذري ، اصطدم ماركس بمعضلة البحث عن ذات هذا التغيير الجذري ، ذلك أن هذا النقد — الاحتجاج — يحتاج إلى جماهير تسنده.

كان ماركس ملاحظا جيدا لما يجري ويعتمل داخل الحركة الثورية الأوربية ، بل وكذلك عارفا بحركة البروليتاريا الثورية الفرنسية.

هكذا سيخلص إلى فكرته الجوهرية حول ضرورة الجمع بين الفلسفة الثورية الألمانية وحركة البروليتاريا الثورية الفرنسية لتحقيق الشيوعية. ومن تم وجدت الفلسفة عنده ذاتها في البروليتاريا.

هنا حصلت نقلة نوعية في فكر ماركس ، لكنها مع ذلك لا زالت تجر معها ذيول التجريد الهيجيلي. وجاءت مقالة انجلس "محاولة في نقد الاقتصاد الوطني" في حينها حيث ستبين لماركس كيفية تحقيق الشيوعية على الصعيد التاريخي. وذلك عندما قام فريدريك انجلس بتحليل للمجتمع البورجوازي اقتصاديا مبينا تناقضاته (المنافسة واندحار الطبقات الوسطية) ، واحتدام الصراع بين البروليتاريا والبورجوازية. هذا الصراع المفتوح على ثورة بروليتارية إلخ...

وقد اعتبر ماركس أن هذه المقالة قد صيغت بنبوغ من طرف انجلس ، وأكملت ما طرحه هو في كتابه "مساهمة في نقد فلسفة الحق" عند هيجل.

لقد ساعد انجلس ، إذن ، رفيقه ماركس على دراسة الاقتصاد. وكان من ثمرة هذا المجهود أن صاغ ماركس المخطوطة الاقتصادية والفلسفية.

ولجأ ماركس في مخطوطته هاته إلى استعمال مفهوم الاستيلاب لتحليل علاقة العمل ومنتوجه معتبرا أن العلاقة مستلبة للعامل الذي يحرم من نتاج عمله ، ذلك أن الأجر لا يوافي المنتوج بكامله.

هكذا شكل مفهوم العمل المستلب خطوة هامة على المستوى الإيديولوجي. وقد أدى هذا إلى إدراك ماركس لدور العمل باعتباره نشاطا إنتاجيا في التاريخ ، بما يعني أنه بدأ يتخلى عن فكرة الاستيلاب الهيجيلية التي كانت تجعل من الإنسان والطبيعة مجرد مفاهيم ، هذه العلاقة (الإنسان — الطبيعة) ما يوحدها ، حسب هيجل ، هو الفكر الذي هو

الصلة بينهما.

لقد كان لهذا الاكتشاف أثر كبير على التطور الفكري والفلسفي لدى ماركس ، فبعد دراسة هذا العمل المستلب وتحليله بل وتعميمه على دراسة الشرط الإنساني اكتشف ماركس مفهوم الممارسة الثورية أو البراكسيس.

إن صلة الإنسان بالطبيعة هي الممارسة وهذا نقيض الطرح الهيجيلي. وسيحتل هذا المفهوم الجديد حجر الزاوية في الفكر الفلسفي الماركسي. (انظر "أطروحات حول فويرباخ"). وبهذه النظرة الجديدة يصبح جوهر التاريخ إذن هو تحويل الطبيعة من طرف الإنسان ، في نفس الوقت الذي يحقق فيه تحوله.

لقد وجد ماركس أن تحرر الإنسان لابد أن يتم عن طريق تحقيق القطيعة بين المرحلة الاستيلابية والمرحلة التي ستحرره أي الشيوعية.

مرة أخرى تكون مساهمة انجلس أساسية لإنقاذ ماركس من بعض تجريداته الغامضة ، ولتنطلق عقارب الساعة مسرعة نحو تبلور الفكر المادي الجدلي والتاريخي لديهما. لقد كان انجلس ملما بما يجري في إنجلترا التي كانت تعرف تطورا سريعا للرأسمالية بفضل الثورة الصناعية ، وتحول نمط الإنتاج والعلاقات الاجتماعية والسياسية والإيديولوجية.

ومن ثمرة هذا التعاون الرفاقي المشترك صدور كتاب "العائلة المقدسة" سنة 1845 والذي شكل حقا خطوة على طريق اكتشاف المادية التاريخية ، لكن مع بقاء رواسب إيديولوجية منتمية للفكر الفيورباخي.

وتلت هذا الكتاب (بعد بضعة أشهر) صياغة ماركس لأطروحاته حول فيورباخ التي صفى فيها حسابه مع فيورباخ معتبرا أن هذا الأخير قد تجاهل الدور المقرر للممارسة في التطور الاقتصادي والاجتماعي ، مما جعله يحكم من منظور تأملي وعاطفي على علاقات الإنسان مع الطبيعة وعلاقات البشر فيما بينهم. بعد هذا جاء كتاب انجلس "وضع الطبقات الكادحة في إنجلترا" الصادر سنة 1845 ، الذي يعتبر إنجازا مهما لأنه احتوى ، عمليا ، على تطبيق للمبادئ الأساسية للمادية التاريخية بمنهجية جدلية. وسنرى فيما بعد قيمة هذا الكتاب بالنسبة لصياغة مضمون "البيان الشيوعي".

وتوجت هذه الفترة بالمجهود الفلسفي الجبار الذي احتوته دفتا كتاب "الإيديولوجية الألمانية" (1845 – 1846). وقد كان بالفعل تدقيقا للمبادئ العامة للمادية التاريخية والجدلية.

وقد قسم هذا الكتاب التاريخ إلى ثلاث مراحل بناء على التطور التاريخي المرتبط بتطور أنماط الإنتاج. والمراحل الثلاث هي: 1 – العصر القديم ، 2 – العصر الوسيط ،3 – الأزمنة الحديثة.

لقد كان هذا الكتاب بمثابة نهاية مرحلة وبداية أخرى بالنسبة لرفيقي النضال الثوري ماركس وانجلس حين بدأ تأثير النضالات السياسية والاجتماعية خاصة نضالات البروليتاريا يعزز موقفهما من هذه الطبقة. وتم انتقالهما من المشاركة الإيديولوجية إلى قيادة نضالها ابتداء من سنة 1846.

وهكذا طرحت عليهما قيادة نضال البروليتاريا العالمية ثلاث مشكلات كبرى:

1 ـ خلق هيئة مركزية لقيادة نضال البروليتاريا.

2 ـ ضمان توجيه سليم للنضال الأممي ضد الإصلاحية والنزاعات الطوباوية والبلانكية.

3 ـ بناء وتثبيت تاكتيك واستراتيجية النضال البروليتاري بداية بألمانيا ثم على المستوى الأوربي.

الفترة الثانية:

من 1846 إلى صدور البيان الشيوعي سنة 1848.

www.30aout.info

1 – ماركس – انجلس وقيادة النضال الثوري للبروليتاريا:

* تجربة (1):

أ – تأسيس اللجان الشيوعية للمراسلة: (Comités de correspondance communiste)

بدخول منتصف أربعينيات القرن التاسع عشر ، نضجت الشروط التاريخية في أوربا ، لقيام ثورات ديمقراطية بورجوازية في عدة بلدان من القارة نتيجة للتطور المتفاوت للرأسمالية الأوربية حيث كانت العديد من الدول كألمانيا والنمسا وإيطاليا وغيرها تعاني من تخلف تاريخي على المستوى الاقتصادي والاجتماعي يتميز بضعف البنيات الإنتاجية الرأسمالية في هذه البلدان. ونتيجة لتلك الشروط كانت الطبقة العاملة مشتتة وضعيفة وغير متمركزة في وحدات إنتاجية كبرى.

فكانت سمة عدم النضج تطبع حركتها النضالية حيث كانت تعاني من ضعف التنظيم ، بل وتقطع مسارها الخاص بعيدا عن الفكر الاشتراكي. لم يكن العمال الأوربيون واعين بالأهداف النهائية لنضالاتهم ، ولا يتوفرون من خلال منظماتهم على برامج واضحة للنضال الطبقي.

كانت عصبة العادلين (ligue des justes) التي تحررت من أفكار الشيوعية السيوائية لصاحبها Weitling قد وقعت من جديد تحت تأثير فكر برجوازي صغير متمثل فيما كان يطلق عليه ب "الاشتراكية الصحيحة".

بينما كانت المجموعات الاشتراكية الأخرى المكونة من مثقفين وحرفيين (artisans) معزولة وتعاني من غموض في الأفكار.

هكذا كان قليلون هم أولئك الذين صاروا يبحثون عن طريق جديد للنضال ، ويرتقون بفكرهم عن المستوى العام للحركة العمالية آنذاك.

وفي جواب بعث به إلى الاشتراكي الإيطالي كارلو كافييرو (Carlo Cafiéro سنة 1871) ، كتب انجلس عن الفترة يقول: "لم يكن معنا إلا عددا قليلا من البروليتاريين ، في سويسرا ، فرنسا ، إنجلترا ، يتبنون الفكر الاشتراكي والشيوعي ، ولم نكن نتوفر سوى على وسائل بسيطة للقيام بالعمل الجماهيري ، لقد كنا مرغمين على استقطاب أنصارنا من بين معلمي المدارس والصحفيين والطلبة".

إذن ومن أجل مساعدة العناصر المتقدمة من الطبقة العاملة على تملك المفهوم الجديد للعالم ، وربط النظرية الثورية بالحركة العمالية ، وكسب الجماهير الكادحة ، كان على رفيقي النضال ماركس وانجلس ان يحددا الأشكال والطرق الفعالة للدعاية للنظرية الجديدة ، أشكال تجيب عن ظروف المرحلة ومرتبطة في نفس الوقت بنقد جذري للنظريات القديمة المهيمنة على أوساط الاشتراكيين.

لقد أصبح ضروريا النضال من أجل جعل المفهوم الجديد للعالم قاعدة للتجميع التنظيمي ، الإيديولوجي والسياسي للمجموعات الاشتراكية المتفرقة وسط حركة شيوعية واحدة تشكل أساسا لبناء الحزب البروليتاري الثوري.

وبعد دراسة وتحليل لخصائص المرحلة سياسيا (اعتبار حجم القمع البوليسي ، قلة الإمكانيات المتوفرة في استعمال الصحافة للدعاية) خلصا إلى اعتبار أن الطريقة المثلى للعمل هي تشكيل لجان المراسلة الشيوعية التي عليها أن تساهم في تنظيم المناضلين والربط بين أنصار الأفكار الشيوعية ليس فقط في ألمانيا بل في باقي بلدان أوربا. ودورها هو تنظيم تبادل المواد الدعائية المطبوعة أو المخطوطة.

من الناحية التاريخية اقتبس ماركس – انجلس هذا الشكل التنظيمي من ممارسات وتجارب الحركة الديمقراطية في إنجلترا وفرنسا عند نهاية القرن الثامن عشر. وقد شكلا أول لجنة للمراسلة الشيوعية في بروكسيل يناير العام 1846. وهكذا ، وحول ماركس – انجلس ، ومن خلال هذه اللجان ، تحلق وتجمع العديد من الأنصار نذكر منهم:

- ويلهم وولف (**Wilhem Wolf**).
- جوزيف ويدماير (**Joseph Weydmayer**).
- ادغارفون وستفالن (**Edgar von Westphalen**) هذا الأخير أخ زوجة ماركس.
- فرديناند وولف (**Ferdinand Wolf**).

شكل هؤلاء نواة ثورية متحلقة حول ماركس وانجلس وجيكو وكانوا أعضاء بلجنة بروكسيل. من الناحية العملية أشرفت هذه اللجنة على المهام التالية:

أ ـ تبادل المعلومات والأخبار.

ب ـ نشر الصحافة الشيوعية.

ج ـ خلق أنوية جديدة (اتسع التنظيم إلى مدن **Silesie, westphalen,cologne,Elbeifeld**) إضافة إلى تواجدها وسط العمال الثوريين الألمان المقيمين بالخارج.

د ـ خوض الصراع السياسي والإيديولوجي والنظري.

ب — خبرة النشاط السياسي داخل لجنة بروكسيل:

لقد سمح النشاط السياسي والعملي وسط لجنة المراسلة الشيوعية ببروكسيل ، لكل من ماركس وانجلس بالمساهمة في بلورة التاكتيك السياسي للحركة الديمقراطية بألمانيا.

فرسائلهما إلى الشيوعيين الألمان باسم لجنة بروكسيل تؤكد على أهمية الحركة الديمقراطية بشكل عام. كما تسطر ضرورة الدفاع عن المطالب الديمقراطية البرجوازية:

- حرية الصحافة.
- إقرار دستور ديمقراطي.
- سن ضريبة تصاعدية على الدخل.

لو حصلنا على هذا ، كتب ماركس وانجلس إلى أنصارهما يقولان "عهد جديد سينفتح أمام الدعاية الشيوعية ، إمكانياتنا ستضرب في عشرة والتناقض العدائي بين البرجوازية والبروليتاريا سيتعمق".

لقد كان هدفهما الأسمى هو تأسيس منظمة شيوعية عالمية.

ج — دروس النضال الإيديولوجي ضد الفكر البرجوازي الصغير:

ج / 1 — في مواجهة أنصار الشيوعية الحرفية:

خاض ماركس وانجلس نضالا مريرا ضد أنصار "الشيوعية الحرفية" ومنظرها ويتلنغ **Weitling** ، وهو مساعد خياط كان مثقفا عصاميا كتب كتابا أسماه ضمانات الحرية والانسجام (**Les garanties de liberté et de l'harmonie**) طرح فيه أفكاره حول الشيوعية. في حقيقة الأمر كانت شيوعية بدائية ومساواتية تقوم على فكر التآمر (**la conspiration**) بمشاركة الحرفيين والعمال . شيوعية ويتلنغ لم تكن تتعامل مع الشيوعية كعلم ثوري ولكن كواقع جاهز لتحقيق ما أسماه السماء على الأرض كما كان أسلوبه يعتمد الاستنكار الأخلاقي بدل التحليل العلمي.

هكذا دعا ويتلنغ إلى أفكار أساسها:

- الدعوة إلى الانتفاضة بعمل بلانكي معزول عن الجماهير.
- إنكار دور البروليتاريا في النضال من أجل الديمقراطية.

- إنكار دور النضال السياسي.

هكذا امتدت نقط خلافه مع ماركس وانجلس داخل لجنة بروكسيل إلى طرق الدعاية والعمل وكذا حول التاكتيك السياسي الثوري.

واستمر النضال ضد هذا الاتجاه الذي اخترق مجموعة من التنظيمات الثورية الشيوعية وذلك إلى حدود ثورة **1848** التي ستثبت درجة العقم التي وصلت إليها الحركة فحكمت عليها بالانقراض.

ج / 2 — ضد "الاشتراكية الصحيحة":

كان الصراع ضد هذا التيار ذا أهمية قصوى لأن أفكاره كان لها تأثير قوي على المثقفين الألمان. وبتعبير البيان الشيوعي انتشرت هذه الأفكار كما ينتشر الوباء (**Epidémie**). كان منظر هذا الاتجاه هو **Herman Kriege** . من وجهة نظر ماركس وانجلس بات ضروريا إزاحتها حتى يتسنى توحيد القوى الثورية.

عموما كان أنصار الاشتراكية الصحيحة لا يعطون أهمية لخصوصية التطور الاجتماعي والسياسي لألمانيا. وكانوا غير مبالين بضرورة التحولات الديمقراطية البرجوازية. هكذا وجدوا أنفسهم موضوعيا مدافعين عن النظام الإقطاعي الاستبدادي.

والمشكل أن توجهات هذا التيار خلقت بلبلة إيديولوجية وسط العمال الألمان الذين كانوا غير قادرين على إدراك معنى ومضمون هذه الأفكار المروجة من طرف هذا التيار المعادي للحركة العمالية.

لقد كان هرمان كريجه عضوا في عصبة العادلين وانتقل إلى أمريكا ، وبدأ نشاطه بها سنة **1845** حيث أصدر جريدة **Volks Tribun** كان يبث من خلالها نداءات إحسانية إلى الأغنياء بأسلوب عاطفي. وبعد نقاشات بين أعضاء لجنة بروكسيل أصدرت هذه الأخيرة دورية كريجه (**Circulaire Kriege**) منتقدة مواقف هذا الأخير ومعتبرة إياها لا تمت بصلة للشيوعية. هكذا تم توجيه نقد صارم للغوه ومهاتراته حول الحب الذي كان يرى فيه مغيرا للعالم وكذا تقديسه للملكية الصغيرة الآمنة (**Sereine**) القائمة على العلاقات البطريركية (المكلية هنا هي ملكية الأرض).

واعتبر ماركس وانجلس أن الملكية الصغيرة العقارية تعني الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ، بالإضافة إلى علاقات تجارية (تبادل البضائع) في الزراعة تساوي من خلال السوق تمركزا للإنتاج والرأسمال ، وهذا يعني عدم المساواة بين الضيعات الصغيرة التي سيفتني بعضها ، والبعض الآخر يتحول إلى الفقر ، مما يحتم عليه الاشتغال عند الطرف الأول. لقد اعتبرا هذا الطرح حلما مستحيل التحقيق شبيه بمن أراد تحويل كل البشر إلى أباطرة أو ملوك أو بابوات.

لقد كان لهذه الدورية تأثير إيديولوجي هام خاصة وأن ماركس وانجلس واجها صعوبات جمة مع هذا الاتجاه مما دفعهما إلى استخلاص الدروس وتقييم الوضع.

ج / 3 — مناظرة باريس وهزيمة الفكر البورجوازي الصغير:

* القاعدة الطبقية للحركة وانتشار الفكر البرجوازي الصغير:

لقد كان ماركس — انجلس يعرفان جيدا طبيعة القاعدة الاجتماعية للحركة حيث تشكلت أساسا من الدباغين ، النجارين ، الحدادين ، الخياطين ، وحرفيين آخرين.

وهذا كان يعني أن شروط عيشهم تقربهم بشكل كبير من البرجوازية الصغيرة ، ومن التقاليد الحرفية (**Corporatives**) وكان ذلك بارزا في وجود غموض إيديولوجي واسع وسطهم ، حيث تتحول الأفكار الواضحة لديهم إلى مجرد أحلام وطموحات إنسانوية. وقد زاد الأمر استفحالا تأثير البرودونية عن طريق **Grün** أحد أتباع كريجه السابق الذكر.

كان كرون يروج في الأوساط الألمانية العمالية بباريس مجموعة من الأوهام البرودونية ذات الطابع البورجوازي الصغير ، موهما الناس بأنه بالإمكان تخليص الرأسمالية من عيوبها بدون المساس بأسسها ، وبدون تحقيق الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج.

لقد كان برودون وأنصاره يرفضون الوسائل والطرق الفعالة للطبقة العاملة كالنقابات والإضرابات كما كانوا معادين لأي نشاط سياسي للبروليتاريا وكذا الثورة الاجتماعية.

* الأهمية التاريخية لمناظرة باريس ودور انجلس الطليعي:

لقد باتت الظروف ملائمة لعقد هذه المناظرة. ومن المعلوم أنها كانت صاخبة ، ودامت ثلاثة أيام ، دار فيها صراع نظري كبير بين انجلس من جهة وأنصار الاشتراكية الصحيحة المدافعين عن المشاريع البرودونية الإحسانية حول السعادة... من جهة أخرى.

خرج انجلس من هذه المناظرة منتصرا بعد ما كان كل المشاركين ضده عند البداية ، لكن بعد تطور النقاش انضم إلى صفه 13 مشاركا من بين 15 حضروا المناظرة.

إن نقد برودون الذي قام به انجلس في هذه المناظرة سيجد تتمة في كتاب ماركس حول برودون: "بؤس الفلسفة" الذي كتبه في النصف الأول من سنة 1847 ، لقد كان هذا الكتاب ذا راهنية وعمق تحليل جعلا منه كتاب- برنامج لنواة حزب شيوعي في طور التكوين.

ومن خلاصات هاته المناظرة التاريخية نسجل تأكيد انجلس لثلاثة مواقف أساسية محددة للحركة الشيوعية آنذاك وهي:

1 ـ إعطاء الأولوية لمصالح البروليتاريا ضد مصالح البرجوازيين.

2 ـ الوصول إلى هذا الهدف بالقضاء على الملكية الخاصة وتبديلها بالملكية العامة.

3 ـ لتحقيق هذه الأهداف لا قبول لوسائل غير وسيلة الثورة العنيفة والديمقراطية.

كانت الفترة السابقة على التحاق كل من ماركس وانجلس بالعصبة الشيوعية قد تميزت بنشرهما للعديد من المؤلفات.

كذلك بنشاط دعائي مكثف وسط العمال الألمان بباريس وغيرها واستطاعا إلى حد ما القضاء على تأثير الاتجاهات الغير البروليتارية وسط الحركة العمالية الأوربية عموما والألمانية خصوصا. لقد هيآ الطريق للأفكار الشيوعية العلمية. واستطاعا تجميع — على أرضية علمية — العمال الأكثر تقدما والحركة الاشتراكية. فهيآ بذلك الظروف والشروط الملائمة لتكوين الحزب البروليتاري الثوري.

وعن هذه الحقبة وعن نشاط انجلس بباريس خلالها كتب لينين سنة 1913 ما يلي:

"هكذا وبباريس ، منذ 67 سنة ، وضعت أسس الحزب العمالي الاشتراكي الديمقراطي لألمانيا" المجلد 19 — الطبعة الفرنسية.

ونضيف أن الأمر ينسحب كذلك على أوربا حيث تشكلت في هذه الفترة ، الأنوية الشيوعية الثورية الأولى للحركة العمالية الأممية.

2 — من عصبة العادلين إلى العصبة الشيوعية:

* تجربة (2):

أ — الوضع الداخلي للعصبة والتحاق ماركس وانجلس بها:

تأسست عصبة العادلين سنة 1836 واسمها السابق هو "رابطة المنفيين الثوريين الألمان" التي يعود تأسيسها إلى

سنة 1834 وهي بدورها كانت فرعا لجمعية العائلات التآمرية البلانكية.

قرر ماركس ورفيقه انجلس الانضمام إلى عصبة العادلين بعد ما تم الاتصال بهما بداية سنة 1847 من طرف قادتها الذين كانوا قد توصلوا إلى ضرورة إعادة تنظيمها بالكامل. هكذا وعند نهاية يناير 1847 اتصل Moll بماركس في بروكسيل وبانجلس في باريس واقترح عليهما الانتساب إلى العصبة وطلب منهما المساهمة في إعادة تنظيمها وبلورة برنامج جديد لها.

كانت البنية التنظيمية تشكو من سيادة روح التشيع ، وقائمة على مبدأ التآمر الثوري البلانكي البرجوازي الصغير ، إضافة إلى وجود علاقات تنظيمية يحكمها الاستبداد البيروقراطي ، كانت بيروقراطية من الباب إلى المحراب كما يقال.

كانت عصبة العادلين تعرف تغييرا مهما عندما التحق بها قادة ميثاقيون أنجليز (chartistes) عمال. لقد وجدها ماركس وانجلس فرصة سانحة لتوجيه نشاط العصبة نحو الهدف الذي كان يراودهما أي: خلق حزب بروليتاري ينبني على مبادئ الشيوعية العلمية.

ب – المؤتمر التأسيسي للعصبة الشيوعية:

سينعقد المؤتمر التأسيسي الأول للعصبة الشيوعية بتاريخ 2 يونيو 1847 بلندن.

المؤتمر (1):

يمكن تلخيص حصيلة هذا المؤتمر الأول فيما يلي:

1 – إدانة المؤتمر لمبدأ التآمر الثوري البلانكي.

2 – نقد روح التشيع السائدة داخل التنظيم.

3 – حذف مبدأ تقديس الشخص من القانون الأساسي (وهو مبدأ قد اقترح ماركس حذفه كشرط الانتماء إلى العصبة).

4 – تغيير البنية التنظيمية ووضع قوانين أساسية قائمة على الديمقراطية والمركزية. وقد أقر المؤتمر صلاحيات لمؤتمر الحزب باعتباره أعلى هيئة تشريعية للتنظيم. ومنح اللجنة المركزية سلطة تنفيذية لكل العصبة خلال الفترة الممتدة ما بين مؤتمرين.

5 – تم إقرار انتخاب القادة أو عزلهم.

هكذا ، ولأول مرة في التاريخ ، تقوم منظمة شيوعية سرية على أساس مبادئ ديمقراطية وبنية تنظيمية مبسطة وبتحديد دقيق لشروط الانتماء إلى العصبة.

كان المؤتمر خطوة إيجابية بالنسبة لماركس وانجلس رغم أنه لم يحقق كل ما توخياه منه. فالقانون الأساسي مثلا بقي ناقصا لانعدام تقديم نظري له.

أما الخطوة الإيجابية المتعلقة بتغيير اسم العصبة ، الذي أصبح "العصبة الشيوعية" ، فكانت بمبادرة من ماركس ، وذلك ليوافق الاسم المبادئ العامة للحركة ، التي تدعو إلى القضاء على النظام الاجتماعي القائم ، وإرساء مبدأ الملكية الجماعية بدل الملكية الخاصة. وقد كانت الحركة تحمل شعار "كل الناس إخوة" شعار استبدله ماركس بآخر. ولأول مرة في التاريخ سيرفع شعار " يا عمال العالم اتحدوا!".

وتقدم المؤتمر كذلك بوثيقة هامة عبارة عن إعلان مبادئ (Profession de foi) تحمل مبادئ الشيوعية (الجزء الأكبر منها صاغه انجلس) وذلك ليناقشها كل أعضاء الحركة.

وتعرض الوثيقة في شكل سؤال جواب:

* أهداف الشيوعيين.

* تحديد المفهوم الطبقي للبروليتاريا وتاريخ ظهورها ومعارضتها للبرجوازية ، وما يميزها عن العبيد والصناع والأقنان.
* أفكار حول التحويل الشيوعي للمجتمع من خلال التطرق لطرق تغيير وتحويل الملكية الخاصة إلى ملكية عامة وفترة الانتقال ودور الثورة.
* الموقف من العائلة ، الخصوصيات الوطنية والدينية القائمة.

ومن أبرز قرارات المؤتمر الأول اتفاقه على إصدار جريدة بلندن تحت عنوان: "الشيوعي" تحت إشراف وولف **Wolf**.

المؤتمر (2):

1 — عرفت الفترة الممتدة ما بين المؤتمرين الأول والثاني (**1847** و **1848**) نشاطا سياسيا وفكريا مكثفا لكل من ماركس ورفيقه انجلس.

فعلى المستوى الجماهيري: ساهما في إنشاء الجمعية العمالية الألمانية ببروكسيل. وقدما من خلالها أنشطة ثقافية ومسرحية ، (إحدى المسرحيات كتبها انجلس).

سياسيا: ساهما في الجمعية الديمقراطية الأوربية ، التي كانت مركز تجمع للقوى الديمقراطية الثورية الأوربية. كان ماركس وانجلس يأخذان الكلمة في لقاءاتهما لنقد عدم جدية الديمقراطيين البرجوازيين الصغار وعدم قدرتهم على فهم مبادئ الشيوعية.

واقتصر عملهما الصحافي على التعاون مع جريدة **Deutsche Brusselun Zeitung** ابتداء من سنة **1847**. وقد أصبحت الجريدة فيما بعد المعبر الرسمي عن مواقف العصبة الشيوعية النظرية منها أو التاكتيكية التي تخدم مواقف الحزب البروليتاري الثوري.

2 — مرة أخرى الصراع الإيديولوجي ، مرة أخرى النضال من أجل بناء التنظيم الثوري المستقل للبروليتاريا.

الخاصية الأساسية للفكر الماركسي أنه انبنى في خضم الصراعات الإيديولوجية والسياسية من أجل بلورة استراتيجية وتاكتيك البروليتاريا في الثورة. وفي كل لحظة قدم ماركس وانجلس التحليل العلمي سواء تعلق الأمر بالتعريف بالنظرية الشيوعية ، أو في الدفاع عن الدور التاريخي للبروليتاريا وتحديد القوى المحركة للثورة ، وصيانة استقلالية خط البروليتاريا وتنظيمها الثوريين.

في هذا السياق كان الصراع ضد أفكار **Heinzen** ذا قيمة نظرية وسياسية لأنه كان نضالا من أجل وجود حزب شيوعي بروليتاري ، مستقل عن الديمقراطيين البرجوازيين الصغار ، حزب يتوفر على تاكتيك ثوري مستقل.

كانت الثورة الديمقراطية تدق أبواب أوربا. وكان حل معضلة الاستراتيجية الثورية يلح إلحاحا.

في هذه الظروف برز **Heinzen** كأحد المدافعين عن الفلاحين كقوة أساسية مع إنكاره لدور البروليتاريا ، وكان على انجلس أن يثبت دور البروليتاريا الصناعية كقوة أساسية دون إنكار دور البرجوازية الصغيرة والفلاحين الذين في نظره يعتمدون على مبادرتها.

منذ **1847** دافع انجلس عن الدور القيادي للبروليتاريا بالنسبة للفلاحين والبورجوازية الصغيرة المدينية. وفي مقالته "الشيوعيون وكارل هينزن" يرد انجلس على هينزن الذي كان يعتبر الشيوعية مجرد أوهام (**des chimères**) معرفا إياها (أي انجلس) بما يلي:

"الشيوعية كنظرية ، هي التعبير النظري عن موقف البروليتاريا في هذا النضال والتعميم النظري لظروف تحرير البروليتاريا".

هذه الأفكار الرائعة ، وأخرى ، سترد في البيان الشيوعي ، والفضل يعود إلى مقالة انجلس السالفة الذكر. إضافة إلى

مقالة "النقد الأخلاقي والأخلاق النقدية" لكارل ماركس.

فالبرنامج المقترح في المقالتين أعلاه تضمنه البيان الشيوعي ونذكر منه:

- المطالبة بالاتحاد الوطني لألمانيا ضمن جمهورية ديمقراطية.
- القضاء وبدون تعويض على الأتاوات (Les redevances) الإقطاعية.
- إعطاء الحرية وإحقاق المساواة في الحقوق بين القوميات المضطهدة من طرف الدولة الألمانية.
- فرض الحريات الديمقراطية في البلاد.
- تمثيلية شعبية حقيقية.

3 — "مبادئ الشيوعية" ، المؤتمر الثاني للعصبة الشيوعية وصياغة البيان الشيوعي:

- انعقاد المؤتمر الثاني (الحصيلة):

عند اقتراب المؤتمر الثاني للعصبة ، صاغ انجلس "مبادئ الشيوعية" الذي صادقت عليه الدائرة القيادية للعصبة المحلية ببروكسيل. وفي 20 نونبر 1847 ، انعقد المؤتمر الثاني للعصبة الشيوعية. ومثل كل من انجلس وماركس فرع بروكسيل ، وقد ثمنا هذا المؤتمر معتبرين إياه: "أول مؤتمر أممي للبروليتاريا". حضرت هذا المؤتمر فروع ألمانيا ، فرنسا ، سويسرا ، بلجيكا ، إنجلترا ، بولونيا ، ومن دول أخرى كالسويد وهولندا إضافة إلى مشاركة الجناح اليساري للشارتيين.

دام المؤتمر عشرة أيام كرس المؤتمرون خلالها انتصار الأفكار الماركسية. وتم تأكيد التسمية الجديدة للتنظيم الذي أصبح اسمه: "العصبة الشيوعية".

وانتصرت كذلك الأفكار التنظيمية لماركس وانجلس.

وتأكيدا لهذه الخلاصات نورد أهم التغييرات التي جاء بها المؤتمر الثاني:

أ — على مستوى الأهداف العامة للتنظيم:

كانت الصيغة القديمة للعصبة تقول:

"تحدد العصبة لنفسها تحرير الإنسان للإنسان عن طريق نشر نظرية الملكية العامة وتطبيقها في أسرع وقت ممكن".

أما الصيغة الجديدة للمؤتمر الثاني للعصبة فترى:

"إن هدف العصبة ، هو قلب البروجوازية ، حكم البروليتاريا ، القضاء على المجتمع البرجوازي القديم القائم على التناقض الطبقي العدائي ، وتأسيس مجتمع جديد بدون طبقات وبدون ملكية خاصة".

ب — على المستوى التنظيمي:

إضافة إلى التغييرات التي جاء بها المؤتمر الأول للعصبة ، أكد المؤتمر الثاني على ضرورة أن تباشر العصبة ابتداء من الآن نشاطها بشكل مفتوح كحزب شيوعي. وهذا يعني أنها ستعلن بشكل عمومي أي جماهيريا مبادءها النظرية ، واعتبر هذا قطيعة مع المبادئ التآمرية البلانكية التي كانت تخفي وجودها وأهدافها. وحذف المؤتمر الثاني من قانونه الأساسي المبدأ الذي كان يرى أن قرارات المؤتمر يجب تأكيدها من طرف المنظمات المحلية ليصبح بالفعل أعلى هيئة تشريعية للتنظيم. وقام المؤتمر بحذف القسم الذي كان يؤديه العضو الجديد.

ج — في مواصفات وأخلاقيات العضو:

لكي تقبل عضوية جديدة لأي مناضل وضعت الشروط التالية:

1 — الشرط الأول: الاعتراف بالشيوعية.

2 — الشرط الثاني: أن يكون نمط حياته ونشاطه موافقان لقناعاته.

3 – الشرط الثالث: أن يضع طاقته الثورية في العمل الدعائي وأن يساهم بفعالية في العمل.
4 – الشرط الرابع: أن لا يكون منتميا لأية جمعية معادية للشيوعية.

د – المؤتمر الثاني والأفكار البرنامجية:

قام المؤتمر الثاني بمناقشة إعلان المبادئ الذي صاغه انجلس تحت اسم "مبادئ الشيوعية" إضافة لمشاريع أخرى. وبعد نقاش طويل تأكد انتصار أفكار الشيوعية العلمية. وكتب انجلس عن هذا الموضوع قائلا:

"كل التناقضات ونقاط الخلاف تم توضيحها. لقد تمت المصادقة على المبادئ الجديدة بالإجماع ، وتم تكليفي (أي انجلس) وماركس بتحرير وصياغة البيان".

هكذا تم تسليم كل الأرضيات ، والورقات لماركس وانجلس لاستعمالها في صياغتهما النهائية للبيان. وعكفا على صياغة البيان الشيوعي ابتداء من 17 دجنبر 1847 في بروكسيل. وعند نهاية سنة 1847 ، غادر انجلس بروكسيل لينفرد ماركس بالصياغة التي أتمها في نهاية يناير 1848.

بعد ذلك تم إرسال المخطوط إلى اللجنة المركزية للعصبة الشيوعية التي كانت تقيم بلندن ، فصادقت عليه بالإجماع وقامت بطبعه وصدرت أول نسخة من البيان الشيوعي في 28 فبراير 1848.

من الناحية التاريخية عاشت العصبة الشيوعية من 1847 إلى 1852. وكانت بحق أول تنظيم شيوعي أممي أسهم ماركس وانجلس في تأسيسه وكتابة برنامجه الذي سيعرف ب "البيان الشيوعي".

لقد كان بحق كتيبا يساوي مجلدات على حد تعبير لينين قائد ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا (سنة 1917). وبالفعل إنه أول وثيقة تاريخية تطرح برنامج الشيوعية العلمية ، وسيبقى شعاره الخالد: "ياعمال العالم اتحدوا" مدويا إلى الأبد لتسمعه بروليتاريا العالم وشعوبه ونساءه المضطهدات.

II – البيان الشيوعي ومقولة الصراع الطبقي:

تمثل مقولة الصراع الطبقي أطروحة مركزية في البيان الشيوعي ، وهي ذات دلالات فلسفية واقتصادية واجتماعية وسياسية هامة. وقد غيرت مسار تاريخ الفكر الاشتراكي العالمي حيث وضعت له حجر الزاوية الأساسي الذي يمكن الانطلاق منه نحو قيادة النضال الثوري صوب الهدف النهائي: بناء المجتمع اللاطبقي الخالي من كل أشكال الاستغلال والاضطهاد بكلمة واحدة: المجتمع الشيوعي.

فبمنهجية علمية تاريخية تعتمد الربط الجدلي بين العام والخاص يعلن البيان: "أن تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا لم يكم سوى تاريخ صراع بين الطبقات". (ويستثني من ذلك المشاعات البدائية التي دامت آلاف السنين دون أن يعرف المجتمع لا الملكية الخاصة ، ولا الطبقات ولا الدولة ولا العائلة البطريركية. وكان نمط الإنتاج السائد جماعيا). وفي سياق الاستشهادات على ذلك يسوق البيان أمثلة هامة من تاريخ البشرية حيث تم البرهان على وجود مجتمعات طبقية مختلفة تعكس المراحل الأساسية التي مر منها الاجتماع البشري. وفي خطوط عريضة يدور الكلام عن:

1 – المجتمع العبودي: وهو مجتمع زراعي قام على استعباد العبيد واستعمالهم في الإنتاج الزراعي وفي الأعمال المنزلية والتجارة والصناعة. وشكل العبيد الطبقة الرئيسية المستغلة من طرف مختلف طبقات وشرائح الأحرار.

2 . المجتمع الإقطاعي: وهو مجتمع شكلت فيه الأرض الوسيلة الأساسية للإنتاج. وقام على استعمال واستغلال طبقة الأقنان (أي الفلاحين الذين يعملون في ملكيات إقطاعية شاسعة) وكانت الأرض ملكا بشكل أساسي لطبقة الإقطاعيين. وبخلاف العبد لم يكن القن ملكا خاصا للإقطاعي. ولكن تجمعه به روابط شخصية وتبعية اجتماعية تفرضها قيم الولاء

للسيد الإقطاعي. وكانت الكنيسة الكاثوليكية تقدم المبررات الإيديولوجية الدينية لمثل هذه العلاقات وبذلك شكلت أكبر حليف للإقطاع.

3 – المجتمع البرجوازي أو الرأسمالي:

لقد عرف هذا المجتمع تحولا اقتصاديا بنيويا جعل من الصناعة والإنتاج الصناعي القطاع الأساسي للإنتاج. ويتشكل هذا المجتمع من طبقيتين رئيسيتين هما:

أ – البرجوازية:

"وهي طبقة الرأسماليين المعاصرين ، مالكي وسائل الإنتاج الاجتماعي الذين يستعملون العمل المأجور".

ب – البروليتاريا:

"طبقة العمال الأجراء المعاصرين الذين لا يملكون أية وسائل إنتاج فيضطرون بالتالي إلى بيع قوة عملهم لكي يعيشوا".

إن النتيجة المنطقية لهذا التحليل هي إقناعنا بأن محرك التاريخ هو صراع الطبقات. وذلك منذ انقسام المجتمع وبروز طبقاته الاجتماعية.

فعلى امتداد حقب تاريخية كان ، ولا يزال هناك مستغلون (بكسر الغين) ومستغلون (بفتح الغين) ، ومضطهدون (بكسر الهاء) ومضطهدون (بفتح الهاء) بينهم حربا طبقية ، تنتهي دائما بانقلاب ثوري داخل المجتمع.

وعند مقارنته للمجتمعات الطبقية الما قبل الرأسمالية بالمجتمع البرجوازي يلاحظ البيان تمييز الأولى بتراتبية متشابكة ، فمجتمع روما كان يضم طبقة النبلاء وطبقة الفرسان والعامة ثم طبقة الأرقاء. أما في القرون الوسطى فكانت التركيبة الطبقية تضم طبقة الإقطاع (مع تمييز الإقطاعي السيد عن الإقطاعي التابع) ، ثم المعلمين والصناع والأقنان. بينما خاصية المجتمع الرأسمالي هو تبسيطه للتناحر الطبقي وجعله معسكرين واسعين متعارضين يضمان طبقتين رئيسيتين هما:

البرجوازية والبروليتاريا.

بعد هذا التقديم العام المكثف وتماشيا مع منطق التحليل ، ينتقل البيان إلى دراسة الخاص ، والخاص هنا هو المجتمع البرجوازي الذي ثبتت تاريخيته كمرحلة من مراحل التطور التاريخي ، وبالتالي نسبيته وقابليته للزوال ، على الرغم من ادعاءات إيديولوجيي الرأسمالية الذين يدافعون عن البعد الواحد للمجتمع الإنساني ، الذي لن يعرف حسب زعمهم سوى الرأسمالية كبعد تاريخي. (انظر ادعاءات فوكوياما الأمريكي حول "نهاية التاريخ").

ولدراسة المجتمع الرأسمالي (هنا مجتمع القرن 19) ينتقل البيان إلى دراسة تاريخية اجتماعية واقتصادية لطبقتيه الرئيسيتين:

1 – البرجوازية: ظروف النشأة وعوامل التطور

أ – النشأة: بعد قراءة الفصل الأول من البيان نعلم أن طبقة الأقنان هي المزود الأول لعناصر هذه الطبقة الجديدة. وهكذا نقرأ "فمن أقنان القرون الوسطى نشأت عناصر المدن الأولى ، ومن هؤلاء السكان المدنيين خرجت العناصر الأولى للبرجوازية".

لقد كانت المجاعات والاضطهاد وأحيانا الفائض السكاني للبوادي تدفع آلاف الأقنان إلى الهروب واللجوء إلى المدن الصغيرة آنذاك(بورغ Burg). فكلمة برجوازي نفسها مشتقة من الكلمة الألمانية "بورغ" التي تعني قرية أو مدينة صغيرة.

وهكذا أطلقت كلمة برجوازي على ساكني هذه المدن. ومن الطبيعي أن تتعاطى هذه الطبقة للتجارة مستفيدة من الضرورة التي يفرضها التقسيم الاجتماعي للعمل.

ب – عوامل التطور: من بين الأسباب المساعدة على النمو السريع لهذه الطبقة الثورية داخل المجتمع الإقطاعي الآيل للسقوط يذكر البيان العوامل التالية:

– اكتشاف القارة الأمريكية والطريق البحري المحاذي لإفريقيا مما فتح الطريق المباشر نحو أسواق الهند والصين وسهل التبادل مع المستعمرات.

– تعدد وسائل التبادل.

ج – النتائج: كان لهذه العوامل مجتمعة نتائج هائلة ، حيث تدفقت البضائع على الموانئ والمدن الأوربية ، وعرفت التجارة والملاحة والصناعة تقدما كبيرا. والنتيجة طبعا هي نمو البرجوازية وتعاظم رساميلها تاركة خلفها جميع الطبقات التي خلقتها القرون الوسطى.

وإذن كما يرى البيان "فالبرجوازية المعاصرة نفسها ، كما نرى ، هي نتيجة تطور طويل وسلسلة من الثورات في أساليب الإنتاج والتبادل".

تتجلى قوة الطرح الماركسي هنا في قدرة البيان على التقاط الحيوية الهائلة للرأسمال من منبعها ، وذلك باعتباره قوة اجتماعية غير شخصية ذات دينامية هائلة قلبت العالم وشكلت بذلك سر تسارع التاريخ الحديث. وهكذا أصبح "كل ما كان تقليديا ثابتا يطير ويتبدد كالدخان ، وكل ما كان مقدسا يعامل باحتقار وازدراء ، ويضطر الناس في النهاية إلى النظر لظروف معيشتهم وعلاقاتهم المتبادلة بأعين يقظة لا تغشاها الأوهام".

فالبرجوازية ، وخلافا للطبقات الصناعية السابقة "لا تعيش إلا إذا أدخلت تغييرات ثورية مستمرة على أدوات الإنتاج ، وبالتالي على علاقات الإنتاج أي على العلاقات الاجتماعية بأسرها".

لقد استطاع البيان بصياغته المركزة الدقيقة أن ينفذ إلى جوهر هذه الحركة الدائمة التوسع والتسارع ، بتحديده لديناميتها الداخلية وتأكيده لحركيتها المنفلتة ، من أعماق المجتمع الإقطاعي ، لتخلق على مقاسها في آن واحد ، المجتمع الرأسمالي والسوق الرأسمالية العالمية:

"وبدافع الحاجة الدائمة إلى أسواق جديدة تنطلق البرجوازية إلى جميع أنحاء الكرة الأرضية. فينبغي لها أن تدخل وتتغلغل في كل مكان ، وتوطد دعائمها في كل مكان وتقيم الصلات في كل مكان". وقد كان لكل هذا نتائج ثورية على طرق وأساليب وعلاقات الإنتاج.

وقد أبانت هذه النتائج عن عجز نمط الإنتاج الإقطاعي عن تلبية الحاجيات المتزايدة. مما ولد وفجر تغييرات ثورية قضت على أسلوب الإنتاج الصناعي القديم - الإقطاعي أو الحرفي - وأحلت محله المانيفاكتورة وقضت تدريجيا على فئة المعلمين / الصناع لتنوج الفئة الصناعية المتوسطة. وعوضت تقسيم العمل بين هيآت الحرف المختلفة بإدخال تقسيم العمل داخل الورشة نفسها.

وتتابع مسار التطور (اتساع الأسواق واتساع الطلب وعجز المانيفاكتورة عن تلبية الحاجيات المتنامية) ، ليحصل انقلاب ثوري جديد بعد إدخال البخار والآلة البخارية ، التي ولدت انقلابا ثوريا في الإنتاج الصناعي. هكذا حلت محل المانيفاكتورة الصناعة الكبرى الحديثة بمعاملها الكبيرة. وبرز رجال الصناعة أصحاب الملايين – بورجوازيو العصر الحديث ، ليأخذوا مكان الفئة الصناعية المتوسطة التي تقضي عليها المنافسة. وبشكل متواز وتدريجي خلقت الصناعة الكبرى السوق العالمية التي ساهم اكتشاف أمريكا في تهيئتها. ومن نتائج ذلك كان أن توسعت التجارة والملاحة ،

وتقدمت المواصلات البرية (السكك الحديدية). ومن جديد تتأثر الصناعة والتجارة بكل هذا التطور الحاصل ، لقد كان هناك ومنذ البداية اتجاه نحو استغلال السوق العالمية ، وعملت البرجوازية على تكريس هذا الاتجاه بنزعها للطابع الوطني لكل صناعة وطنية ، وخلق الترابط والتبعية المشتركة بين كل الأمم فيما يخص كل الإنتاجات كانت مادية أو فكرية. وحول هذا الموضوع جاء في البيان ما يلي:

"وتجبر البرجوازية كل الأمم ، تحت طائلة الموت ، أن تقبل الأسلوب البرجوازي في الإنتاج ، وأن تدخل إليها المدنية المزعومة ، أي أن تصبح برجوازية ، فهي باختصار تخلق عالما على صورتها ومثالها".

إن هذا المسار الذي خلقته الرأسمالية بإحكامها القبضة المستمرة على شعوب الأرض ما زال جاريا أمام أعيننا بعد 163 سنة من صدور البيان.

فما العولمة الحالية سوى نهاية ما وصل إليه تعميم العلاقات البضاعية عالميا ، حيث كل شيء خاضع للتبضيع ، الطبيعة ، الفكر ، الثقافة ، الإنسان ، الممتلكات المشتركة...

إنه وضع يخلق باستمرار تفاوتات طبقية خطيرة وتقسيمات جديدة واضطهاد جديد وخصوصيات جديدة... فلم تنته الإمبريالية كما يدعي مثقفو البرجوازية ، كلاب الحراسة الجدد ، بل دخلت الإمبريالية طورا جديدا جعل من تطور العلوم والتكنولوجيا ، والإمكانات الجديدة التي توفرها - بدل طاقة وإمكان ثوري للتحرر الإنساني — أدوات جديدة لتعميق شروط الاضطهاد والاستغلال والعبودية والإقصاء ، وزيادة الفقر المادي والمعنوي لدى الغالبية من شعوب وكادحي ونساء العالم.

د — التطور الاجتماعي والسياسي للبرجوازية:

في الصفحات السابقة رأينا كيف عرض البيان لمراحل التطور الاقتصادي للبرجوازية. ولم يتوقف عند هذا الحد بل أبان لنا كيف كان كل تطور اقتصادي يرافقه تطور ورقي سياسي. وسطر البيان مراحل السيرورة الطويلة المؤدية إلى السيادة السياسية للبرجوازية وذلك عبر تسلسل تاريخي جعلها:

1 ـ تنتقل من فئة مضطهدة تحت عسف الإقطاعيين واستبدادهم إلى جماعة مسلحة داخل الكومونة (المدن) تدير نفسها بنفسها وتحمي مصالحها المادية والمعنوية.

2 ـ تم تشكيلها لجمهوريات مدينية مستقلة واحتلالها لموقع الطبقة الثالثة ضمن المملكات الاستبدادية القائمة ، وكذا دفعها الجزية للملك.

3 ـ بتزايد حجمها ودورها ، أصبحت قوة توازن يناشد ودها عند انفجار التناقضات داخل الطبقات السائدة في الممالك الإقطاعية القائمة.

4 ـ تستولي على السلطة السياسية لدعم سيادتها الاقتصادية ، عبر ثورات معروفة (الثورة الإنجليزية سنة 1689 ، الثورة الفرنسية 1789) ، وتأسيسها إثر ذلك دولا برلمانية تمثيلية وهو مسار سياسي عام ، أدى إلى بناء الدولة السياسية البرجوازية إلى حد ان البيان اعتبر أن "الحكومة الحديثة ليست سوى لجنة إدارية تدير الشؤون العامة للطبقة البرجوازية بأسرها ".

لقد تولد عن التمركز الاقتصادي (تمركز وسائل الانتاج في يد البرجوازية + تزايد السكان ..) تمركز سياسي خلق الأمة الواحدة ، والحكومة الواحدة ، والقوانين الواحدة مما خلق السوق الوطنية الواحدة ، وظهور المصلحة القومية الطبقية الواحدة.

إذن أمام تراكمات التطور السياسي والاقتصادي ضاقت العلاقات الاجتماعية للبرجوازية ذرعا بالنظام الإقطاعي للملكية

الذي أصبح معرقلا لتطور القوى المنتجة ، فاحتدت الصراعات الطبقية داخل المجتمع الإقطاعي لتولد الثورات البرجوازية ، التي شيدت المجتمع الرأسمالي الحديث ، بسوقه الوطنية القائمة على المنافسة الحرة ، ودولته التمثيلية. وهكذا خلقت البرجوازية نظاما اجتماعيا وسياسيا مناسبا لها. لتتحقق لها بذلك السيادة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ومن ثمة الهيمنة الإيديولوجية والثقافية. لكن ما أن أرسلت البرجوازية دعائم نظامها الرأسمالي ، حتى انكشف نفاقها حول الأخوة والمساواة والحرية ، تلك الشعارات التي كانت تخفي تحتها مصالحها الطبقية ليتبين من جديد ، أن ثوراتها لم تكن سوى وسائل لخدمة المصالح الأنانية للأقلية البرجوازية. لقد انكشفت كذلك تناقضات المجتمع الرأسمالي معلنة أزمته الدائمة نتيجة طبيعته الطبقية المعادية لمصالح الأغلبية الساحقة من العمال والكادحين ، والباحثة باستمرار عن الربح الأقصى كمحرك لنمو البرجوازية ومصالحها الاقتصادية. وعلى لسان البيان: "فليس تاريخ الصناعة والتجارة منذ بضع عشرات السنين سوى تاريخ تمرد القوى المنتجة الحديثة على علاقات الإنتاج الحديثة ، على علاقات الملكية التي يقوم عليها وجود البرجوازية وسيطرتها".

وأمام أزماتها الدورية (المعروفة بأزمات فائض الإنتاج) تلجأ البرجوازية إلى حلول تقوم على:

1 – إما إتلاف كميات هائلة من المنتجات وقيامها بتدمير قسري لمقدار من القوى المنتجة.

2 – وإما اللجوء إلى الاستيلاء على أسواق جديدة (ظاهرة الاستعمار كانت ملازمة للرأسمالية منذ نشأتها).

3 – أو العمل على زيادة استثمار الأسواق القديمة بتطوير تقنيات إنتاجية جديدة...

ورغم هذه الحلول ، يرى البيان أن البرجوازية في هروبها الدائم إلى الأمام من أزمتها هاته ، تعمل باستمرار على تحضير شروط أزمات أعم وأهول.

ويحدد البيان عند نهاية تحليله للطبقة البرجوازية موقفه التاريخي منها معلنا أن: "الأسلحة التي استخدمتها البرجوازية للقضاء على الإقطاعية ترتد اليوم إلى صدر البرجوازية نفسها".

ثم يضيف: "ولكن البرجوازية لم تصنع فقط الأسلحة التي سوف تقتلها ، بل أخرجت أيضا الرجال الذين سيستعملون هذه الأسلحة: وهم العمال العصريون أو البروليتاريون".

2 – البروليتاريا: تعريفها ، نشأتها ، تطورها ونضالها

أ – من حيث تعريفها سبق وأن قدمنا تحديد انجلس لذلك ، أخذناه من إحدى مقدماته للبيان الشيوعي. لكننا نجد البيان غنيا بمزيد من التفاصيل حين يعرف البروليتاريا كذلك بانها: "طبقة العمال العصريين الذين لا يعيشون إلا إذا وجدوا عملا ، ولا يجدونه إلا إذا كان عملهم هذا ينمي الرأسمال".

ويرى البيان أن ثمن قوة العمل كثمن كل بضاعة يساوي تكاليف إنتاجها. إن قوة العمل هاته ككل بضاعة مادة تجارية ، تعاني من المزاحمة وتموجات السوق. ويصف البيان كيف أدى استعمال الآلات وتقسيم العمل في ظل نمط الإنتاج الراسمالي ، إلى تحويل العامل إلى عبارة عن ملحق بسيط للآلة ، يقوم بعمليات رتيبة سهلة التلقين تنزع عنه نشاطيته الإبداعية وتفصله في ظل سيرورة الإنتاج الرأسمالي عن منتوجه ، أي تكرس استيلابه.

وانتقل البيان إلى وصف الحالة الاجتماعية للعمال منذ الانتقال من ورشة المعلم الحرفي البطريركي الصغيرة إلى المصنع الرأسمالي الكبير مبينا كيف أصبح العمال المكدسون في هذه المعامل يخضعون لتنظيم أشبه ما يكون بالتنظيم العسكري. هكذا حولت العبودية المأجورة العمال إلى عبيد للطبقة البرجوازية والدولة البرجوازية وللآلة وللناظر... وبالمناسبة ، فضح البيان الكيفية التي يستخدم بها الرأسماليون النساء والأطفال ذاكرا أنه كلما كان الطلب على العمل اليدوي ذا مهارة وقوة يقل ، يقوم الرأسماليون بالاستعاضة عن عمل الرجال بعمل النساء والأطفال. واستغلال العمال

كذلك تشارك فيه فئات أخرى من المجتمع ، حيث يتعرضون بل يصبحون فريسة لمالك البيت والبائع بالمفرق والمرابي. وبحكم المنافسة الحادة داخل المجتمع الرأسمالي ، واحتداد الصراع الطبقي داخله ، تعرف الفئات السفلى من الطبقة المتوسطة (صغار الصناع والتجار ، أصحاب الإيرادات ، الحرفيون والفلاحون...) تدهورا مستمرا ، يسقطها في صفوف البروليتاريا. وعند التحاقها بوضعها الجديد تحمل معها ثقافتها وتجربتها السياسية إلى الطبقة العاملة.

ب — نشأة النضال البروليتاري ومراحله: من التشتت إلى الوحدة الطبقية

— النشأة: في بدايات نضالهم الطبقي خاض العمال معاركهم النضالية إما كعمال فرادى منعزلين أو عمالا لمعمل واحد أو في أحسن الأحوال عمالا لفرع صناعي.

كان أسلوبهم يقوم على تحطيم الآلات وإتلاف البضائع وإحراق المصانع. كانوا يعتقدون أن تلك الآلات أو المصانع هي سبب مآسيهم المادية والمعنوية. وكانت أعمالهم تلك تعبيرا عن محاولاتهم استعادة وضع العامل في القرون الوسطى وذلك عن طريق القوة.

كانت جماهير العمال عبارة عن فئات مبعثرة تشتتها المزاحمة باستمرار ، وهم بذلك كانوا يكونون طبقة اجتماعية لم تع بعد مصالحها الطبقية المستقلة. ولذلك وحدتهم البرجوازية أحيانا لتحقيق مراميها السياسية ، فكانوا بذلك - كما يقول البيان - لا يحاربون أعداءهم ، بل أعداء أعدائهم سواء تعلق الأمر ببقايا الحكم الملكي المطلق ، أو الأرستقراطية العقارية (الإقطاع) ، وكذا البرجوازيين الغير الصناعيين وصغار البرجوازيين. ومنطقيا كان كل انتصار يتحقق بمشاركة العمال يصير لمصلحة البرجوازية.

— التطور اللاحق: مع التقدم الصناعي (الثورة الصناعية الأولى) ، زادت أعداد العمال ، وأدى ذلك إلى تمركزهم في وحدات إنتاجية كبرى. مما نما إدراكهم بقوتهم وأقام تساويا بين مصالح البروليتاريين وظروف معيشتهم ، في ظروف كانت المزاحمة والمنافسة البرجوازية تكسر وحدتهم الطبقية ، حيث الأجور أقل استقرارا وأكثر تقلبا. وقد ساعد إدخال الآلات الحديثة (**Machinisme**) على هذا التحول مما أدى إلى:

1 ـ جعل المصادمات بين الطبقتين (البرجوازية والبروليتاريا) تأخذ طابع صراع مفتوح بينهما.

2 ـ دفع العمال إلى تأسيس جمعيات مؤقتة ثم جمعيات دائمة للدفاع عن أجورهم ولتأمين وسائل العيش لأنفسهم في حال المعارك النضالية.

3 ـ انطلاق الانتفاضات الأولى ، إلى جانب معارك ينتصرون فيها لكنها قصيرة الأمد ، ونتيجتها الحقيقية هي تبلور تضامنهم الطبقي.

4 ـ تنامي هذا التضامن واشتداده خاصة مع نمو وسائل المواصلات ليتحول النضال المحلي في كل مكان إلى نضال طبقي واحد ، يشمل البلد كله. وما أنجزته البرجوازية عبر قرون أي الاتحاد الطبقي حققه العمال في بضعة سنين.

5 ـ أصبح الصراع تدريجيا يأخذ طابعا سياسيا ، مما جعل البيان يستخرج هذا القانون العام للصراع الطبقي وهو أن: "كل صراع طبقي هو صراع سياسي".

— البروليتاريا وسيرورة تطور وعيها الطبقي وأهمية حزبها السياسي المستقل:

الأطروحة الأساسية في البيان حول نمو الوعي الطبقي تقوم على فكرة هامة نواتها الأساسية مشكلة من ضرورة الربط بين انتظام البروليتاريا كطبقة وانتظامها كحزب سياسي. ويرى البيان أن المزاحمة بين العمال تحطم باستمرار هذا الانتظام وبالتالي تقلص من تنامي الوعي السياسي ، لكن بمجرد ما أن يختفي ، حتى يعود كذلك باستمرار مستفيدا من تناقضات البرجوازية خاصة لما تحقق بعض مصالح الطبقة العاملة وتعترف بقانونيتها.

(بريطانيا: الحق النقابي اعترف به في 1824).

وعن سياق تطور وعيها السياسي ونموه ، حدد البيان ذلك في ثلاث أفكار مفادها أنه:

1 – لما كانت البرجوازية في حالة حرب مستمرة ضد الأرستقراطية وفئات من البرجوازية أو ضد برجوازي الأقطار الأخرى ، كانت تستعمل البروليتاريا وتلتجئ إليها لتضرب أعداءها ، مما دفع العمال إلى مضمار الحركة السياسية واختبار معاركها. وهكذا تكون البرجوازية قد قدمت لها عناصر ثقافتها أي سلاحها الذي ستحاربها به.

2 – لما كانت المنافسة المحتدمة داخل المجتمع الرأسمالي تؤدي باستمرار إلى سقوط فئات وسطية من جراء ذلك والتحاقها بالبروليتاريا لتحمل إليها عناصر من الثقافة التي تتوفر عليها.

3 – عند احتدام الصراع الطبقي واقترابه من ساعة الحسم ينضم جزء صغير من الطبقة الحاكمة نفسها إلى الطبقة الثورية. وقديما انتقل جزء من النبلاء إلى جانب البرجوازية.

وهذا القسم ، المشار إليه أعلاه ، يتألف أساسا من البرجوازيين المفكرين الذين تمكنوا من الإحاطة بمجموع الحركة التاريخية وفهمها بصورة نظرية.

– البروليتاريا كطبقة ثورية ودورها التاريخي:

لماذا البروليتاريا طبقة ثورية ؟

1 – يرى البيان أن من بين كل الطبقات التي تواجه البرجوازية ليست هناك إلا طبقة واحدة ثورية حقا ويعني البروليتاريا ، لماذا؟

لسبب بسيط هو أن البروليتاريا هي أخص منتجات الصناعة الرأسمالية بل منتوجها الأصيل ، وذلك لتلازم العمل المأجور والرأسمال تلازما جدليا ، أما الطبقات الأخرى فتعرف الانحطاط والهلاك مع نمو الصناعة الكبرى. فحين تحارب الفئات المتوسطة (صغار الصناعيين ، الباعة بالمفرق ، الحرفيين ، الصناعيين) البرجوازية الكبيرة ، فهي تقوم بذلك من أجل الحفاظ على وجودها باعتبارها فئات متوسطة ، فموقعها الطبقي يجعلها تكون محافظة بل أحيانا رجعية. ومن وجهة نظر البيان: "فهي تطلب أن يرجع التاريخ القهقري ويسير دولاب التطور إلى الوراء. وإذا كنا نراها تقوم بأعمال ثورية ، فما ذلك إلا لخوفها من أن تتدهور إلى صفوف البروليتاريا".

أما شرط تحررها فهو أن تدافع عن مصالحها المقبلة ، لا عن مصالحها الحالية ، ولكن لن يتحقق لها ذلك إلا إذا تخلت عن وجهة نظرها الخاصة لتتبنى وجهة نظر البروليتاريا.

2 – فكرة البيان عن طبيعة ومضمون الحركة الثورية للبروليتاريا باعتبارها حركة قائمة بذاتها للأكثرية الساحقة في سبيل ومصلحة الأكثرية الساحقة. والديمقراطية الاشتراكية في مضمونها وشكلها ليست إلا تعبيرا على ذلك.

3 – يقوم هذا الدور الموكول للبروليتاريا على شروط موضوعية تعيد إنتاج هذا الدور باستمرار.

يقول البيان: "إن الشرط الأساسي للوجود والسيادة بالنسبة للطبقة البرجوازية هو تكديس الثروة في أيدي بعض الأفراد وتكوين الرأسمال وإنماؤه... وشرط وجود الرأسمال هو العمل المأجور ، والعمل المأجور يرتكز بصورة مطلقة ، على تزاحم العمال فيما بينهم. ورقي الصناعة الذي ليست البرجوازية إلا خادما منفعلا ومقسورا على خدمته ، يستعيض عن انعزال العمال الناتج عن تزاحمهم ، باتحاد ثوري بواسطة الجمعيات ، وهكذا ينتزع تقدم الصناعة الكبرى من تحت أقدام البرجوازية نفس الأسس التي شيدت عليها نظام إنتاجها وتملكها. إن البرجوازية تنتج قبل كل شيء حفاري قبرها ، فسقوطها وانتصار البروليتاريا كلاهما لا مناص منه".

III – البروليتاري والشيوعي: أية علاقة ؟

للإحاطة بهذه الإشكالية والإجابة عنها يقوم البيان الشيوعي بإعطائنا فكرة عن المبادئ والأهداف العامة المؤطرة للنضال البروليتاري الشيوعي. فمن هم الشيوعيون ؟ وهل لهم أهداف خاصة بهم ؟ وهل لهم نظريات يأتون بها من خارج النضال الطبقي البروليتاري الشامل يعملون انطلاقا منها على وضع حركة البروليتاريا في قالبها ؟

إنها أسئلة كبيرة أجاب عنها ماركس وانجلس بوضوح تام.

1 – المبادئ العامة المؤطرة للنضال الشيوعي:

أ – إقرار عضوية العلاقة بين النضال الشيوعي وحركة البروليتاريا الثورية.

جاء في البيان أن الشيوعيين: "ليست لهم مصالح منفصلة عن مصالح البروليتاريا بمجموعها".

وكذلك: "وهم لا يدعون إلى مبادئ خاصة يريدون تكييف الحركة البروليتارية في قالبها".

ب – لا فصل بين النضال اليومي المباشر للبروليتاريا والهدف العام أي تحقيق الاشتراكية وبناء المجتمع اللاطبقي أي الشيوعية.

نقرأ في البيان: "في مختلف مراحل التطور التي يمر بها الصراع بين البروليتاريين والبرجوازيين يمثل الشيوعيون دائما ، المصالح العامة للحركة بكاملها".

ج – عدم الفصل بين النظرية الثورية والممارسة الثورية الملموسة بتعبير لينين: "لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية" وطبعا إذا فهمت جدليا ، وقد فهم البيان جيدا أهمية النظرية لكونها تعطي للمناضلين الشيوعيين امتيازا هاما يسمح لهم بإدراك واضح لظروف حركة البروليتاريا وسيرها ونتائجها العامة.

وهكذا نقرأ في البيان: "وهم أي -الشيوعيون- من الوجهة النظرية يمتازون عن بقية البروليتاريين بإدراك واضح لظروف حركة البروليتاريا وسيرها ونتائجها العامة".

وحتى لا يكون انزلاق في فهم النظرية الثورية ، وضدا على كل نظرة مثقفية معزولة عن واقع النضال البروليتاري الثوري ، يأتي التحديد الدقيق لذلك لدى ماركس وانجلس كما يلي: "مفاهيم الشيوعيين النظرية لا ترتكز مطلقا على أفكار أو مبادئ اكتشفها أو اخترعها مصلح من مصلحي العالم" ، "فما هي سوى التعبير الإجمالي عن الظروف الواقعية لنضال طبقي موجود ولحركة تاريخية تتطور في ذاتها أمام أعيننا".

د – مبدأ الأممية البروليتارية: يحدد الشيوعيون مواقفهم من كل القضايا الوطنية والقومية والطبقية انطلاقا من هذا المبدأ. هكذا جاء في البيان أنه: "في النضالات التي يقوم بها البروليتاريون من مختلف الأمم ، يضع الشيوعيون في المقدمة ويبرزون المصالح المستقلة عن الجنسية ، والعامة الشاملة لمجموع البروليتاريا".

فالشعار المركزي للثورة البروليتارية الذي اختتم به البيان هو: "يا عمال العالم اتحدوا".

2 – الأهداف العامة للنضال الشيوعي:

أ – تقوم هذه الأهداف على رؤية علمية تحليلية للمجتمع الرأسمالي وتناقضاته. ففي ظل سيادة الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج لا يخلق العمل المأجور ملكية للبروليتاري ، العمل المأجور يخلق الرأسمال أي الملكية التي تستغل العمل المأجور ، والتي لا يمكن أن تنمو إلا بشرط أن تنتج أيضا وأيضا عملا مأجورا لتستثمره من جديد. فالملكية في شكلها الرأسمالي الحالي ، تتحرك بين هذين الطرفين المتناقضين أي الرأسمال والعمل المأجور ، وما ينتجه الأول من فائض القيمة عن طريق استغلال قوة عمل البروليتاري. فالأجر المؤدى للعامل لا يغطي إلا جزءا من عمله ، والجزء الآخر يذهب

إلى جيب الرأسمالي. وفي تعريف الأجر نقرأ في البيان أنه الثمن المتوسط الذي يشترى به العمل المأجور أي الحد الأدنى للأجرة أي مجموع وسائل المعيشة اللازمة للعامل لكي يعيش كعامل.

الرأسمال من منظور ماركس — انجلس ليس قوة شخصية بل قوة اجتماعية. ولذلك إذا تم تحويل الرأسمال إلى ملكية مشتركة للمجتمع ، هذا يعني أن الصفة الاجتماعية للملكية تكون قد تغيرت ، أي أنها تفقد صفتها الطبقية ويرى مؤلفا البيان الشيوعي أن في المجتمع البرجوازي ، نجد أن العمل الحي (قوة العمل) تستعمل وسيلة لإنماء العمل المتراكم أي الرأسمال ، وإذا انقلبت الأمور ثوريا فستصبح الأمور على عكس ذلك في المجتمع الشيوعي.

فالبيان يعلن أنه: "... في المجتمع الشيوعي فليس العمل المتراكم إلا وسيلة لتفريج حياة الشغيلة وإغنائها وترفيهها". ويحدد ماركس وانجلس طبيعة المجتمع الشيوعي ، باعتباره المجتمع الذي يسيطر فيه الحاضر على الماضي عكس المجتمع البرجوازي حيث الماضي يسيطر على الحاضر.

ب — الأهداف العامة هي برنامج المشروع الثوري للبروليتاريا:

1 — من تنظيم البروليتاريين في طبقة ، أي في حزب سياسي ، إلى هدم سيادة البرجوازية واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية ، فالاستيلاء على السلطة هو الهدف المركزي لكل ثورة.

2 — العمل من أجل القضاء على الملكية الخاصة.

3 — الخطوة الأولى في ثورة العمال هي تحويل البروليتاريا إلى طبقة سائدة والظفر بالديمقراطية أي ديمقراطية الأغلبية لصالح الأغلبية وهي ما أسماها ماركس ، فيما بعد ، بديكتاتورية البروليتاريا.

4 — استخدام هذه السيادة السياسية من أجل:

أ — انتزاع الرأسمال من البرجوازية شيئا فشيئا عبر مرحلة انتقالية ينبني خلالها المجتمع الاشتراكي.

ب — مركزة جميع وسائل الإنتاج في أيدي الدولة ، والدولة هنا هي البروليتاريا المنظمة في طبقة حاكمة.

ج — زيادة وتطوير القوى المنتجة لخدمة المجتمع وحاجياته وبناء مجتمع الحرية.

د — استعمال العنف الثوري الجماهيري للاستيلاء على السلطة والقضاء على مقاومة البرجوازيين والرجعيين ومصادرة أملاكهم.

ملحوظة: عند صياغة محاور هذا البرنامج ترك البيان التدابير الملموسة ، وذلك مراعاة لخصوصيات كل بلد بينما أكد على ما هو عام ومشترك.

والعام هنا نقرأه في هذه الفقرات من البيان حيث جاء فيه: "أن السلطة السياسية ، بالمعنى الصحيح ، هي السلطة المنظمة لطبقة من أجل اضطهاد طبقة أخرى ، فإذا كانت البروليتاريا ، في نضالها ضد البرجوازية ، تبني نفسها بواسطة الثورة طبقة حاكمة ، ثم بصفتها طبقة حاكمة ، تهدم بالعنف والشدة علاقات الإنتاج القديمة ، فإنها يهدمها علاقات الإنتاج القديمة ، تهدم في الوقت نفسه ظروف وجود التناقض والتناحر بين الطبقات وتهدم الطبقات بصورة عامة. وبذلك تهدم أيضا سيادتها ذاتها من حيث هي طبقة".

وهكذا: "وعلى أنقاض المجتمع البرجوازي القديم بطبقاته وتناقضاته الطبقية ، يبرز مجتمع جديد تكون حرية التطور والتقدم لكل عضو فيه شرطا لحرية التطور والتقدم لجميع الأعضاء".

ذلك هو البديل الذي يقدمه المشروع الثوري للبروليتاريا. لم يكن ماركس وانجلس حالمين ، عندما كانا يحددان أهدافهما المعلنة عبر البيان. بل وكما رأينا في الصفحات الأولى من هذا المقال فقد كان بينيان باستمرار استراتيجيتهما وتاكتيكهما لخدمة النضال الثوري للبروليتاريا ، معلنين دائما وبصراحة ثورية موقف الشيوعيين من مختلف أحزاب

المعارضة الأخرى ، بل كانا لا يرفضان التحالف معها إذا كان هذا التحالف لا ينفي نقدها ويخدم مهمة توعية البروليتاريا بمصالحها المستقلة. هكذا نقرأ موقفهما: "والخلاصة أن الشيوعيون يؤيدون في كل قطر من الأقطار كل حركة ثورية ضد النظام الاجتماعي والسياسي القائم".

ثم كان انتباههما متوجها إلى ألمانيا ، التي كانت تعتمل فيها بذور ثورة قادمة ، وهو ما أكده البيان معلنا: "أن انتباه الشيوعيين يتوجع بصورة خاصة نحو ألمانيا لأنها على أعتاب ثورة برجوازية ، ولأنها ستقوم بهذه الثورة في ظروف تكون فيها المدنية الأوربية أكثر تقدما ورقيا ، ومع بروليتاريا متقدمة نامية اكثر مما كانت عليه في إنجلترا في القرن السابع عشر وفي فرنسا في القرن الثامن عشر ، فالثورة البرجوازية الألمانية لا تكون بالتالي ، سوى بداية وتمهيد مباشر لثورة بروليتارية".

وأخيرا نجد أن البيان الشيوعي ، هذا الكتيب العظيم يعلن بدون مواربة ، وبدون إخفاء المواقف ومقاصد الشيوعيين وأهدافهم وسبل تحقيقها مؤكدا أن الطريق إلى ذلك هو الثورة الاجتماعية البروليتارية التي تدك كل النظام الاجتماعي القائم بالعنف.

هكذا أطلقها البيان صرخة مدوية منذ ما يزيد عن مائة وثلاث وستين سنة خلت:

"فلترتعش الطبقات الحاكمة أمام الثورة الشيوعية. فليس للبروليتاريا ما تفقده فيها سوى قيودها وأغلالها ، وتربح من ورائها عالما بأسره".

"يا عمال العالم اتحدوا"

الرباط في: 16 يناير 2011

دليل الأسماء الواردة في النص:

- كارل ماركس: **1818 — 1883**
- فريدريك انجلس: **1820 — 1895**
- أبيقور: نحو **341** — نحو **270** قبل الميلاد ، فيلسوف مادي إغريقي يعتبر أب الديالكتيك.
- الإخوان باور: ادهر باور: (**1820 — 1886**)وبرونو باور (**1809 — 1882**) ، عضوان بارزان في تيار الهيجليين الشباب الذي كان ينتمي إليه ماركس في بداياته الأولى ، وقد كانا يمثلان الاتجاه الراديكالي البرجوازي داخل هذا الاتجاه قبل أن يصبح برونو الشقيق الأكبر بعد سنة **1866** ليبراليا قوميا.
- برودون: **1809— 1865** ،.صحفي واقتصادي وعالم اجتماعي فرنسي ، وهو صاحب كتاب "فلسفة البؤس" الذي رد عليه كارل ماركس بكتاب تحت عنوان "بؤس الفلسفة". وعموما يعتبر برودون من إيديولوجيي البرجوازية الصغيرة وأحد مؤسسي الفوضوية.
- لويس أوغست بلانكي: **1805 —1881** ، مناضل ثوري فرنسي ، شيوعي طوباوي أحد قادة ثورة **1848** الفرنسية. وقد مثل جناح أقصى اليسار في الحركة الديمقراطية والبروليتارية الفرنسية.

هو مؤسس الاتجاه البلانكي في الحركة الثورية الأوربية الذي انتقده ماركس في مناسبات عديدة لأنه يمجد الأسلوب الفوقي التآمري لإنجاز الثورة عبر الانتفاضات المسلحة ، وقد اعتقل بلانكي مرارا وصدرت في حقه أحكاما كثيرة.

- كارل كرون: **1817 — 1887** ، كاتب سياسي ألماني ، من أبرز ممثلي ما كان يسمى الاشتراكية الصحيحة ، وهو بذلك

يعتبر من قادة الاشتراكية البرجوازية الصغيرة الألمانية أواسط الأربعينيات.

- لودفيغ فيورباخ: **1804 — 1872** ، فيلسوف مادي ألماني لمرحلة ما قبل ماركس. وسبق لماركس وانجلس أن انتقدا فلسفته ، (انظر "أطروحات حول فيورباخ" كارل ماركس ، "ولودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية" فريدريك انجلس.

- لويس هنري مورغان: **1818 — 1881** ، مؤرخ المجتمعات البدائية ، وقد اكتشف المادية التاريخية بشكل عفوي. اعتمد انجلس على أبحاثه في كتابه "أصل العائلة والدولة والملكية الخاصة".

- ويلهلم فريدريك هيجل: **1770 — 1831** ، أهم ممثلي الفلسفة الكلاسيكية الألمانية وأكبر فيلسوف مثالي موضوعي. استفاد ماركس كثيرا من فلسفته خاصة نواتها الديالكتيكية التي أنقذها من المثالية وجعلها مادية.

- ولهلم ويتلنغ: **1808 — 1871** ، أحد مناضلي الحركة العمالية الأوائل وهو من منظري الاتجاه الذي أطلق عليه الشيوعية السوائية.

بيان الحزب الشيوعي

شبحٌ يروّع أوروبا: إنه شبح الشيوعية. لقد اتحدت كل قوى أوروبا العجوز في حلف مقدس لمطاردته: من البابا والقيصر إلى مترنيخ وغيزو، ومن راديكاليي فرنسا إلى شرطة ألمانيا.

أيّ معارضة لم تُرجِع، بدورها، نعت الشيوعية الشائن إلى خصومها سواء من اليمين أو من اليسار.

يُستخلَص من ذلك أمران اثنان: أوّلهما أن الشيوعية كقوة أصبحت بعدُ محلّ اعتراف جميع القوى الأوروبية، والثاني أن الشيوعيين قد آن لهم عرض تصوّراتهم وأهدافهم وميولهم أمام العالم بأسره، ومقابلة حكاية شبح الشيوعية ببيان للحزب نفسه.

ولأجل هذه الغاية، اجتمع بلندن شيوعيون من جنسيات مختلفة وحرّروا هذا البيان، الذي ينشر باللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والفلامندية والدنماركية.

البورجوازيون والبروليتاريون [1]

إن تاريخ كل مجتمع حتى يومنا هذا [2]، لم يكن سوى تاريخ الصراعات الطبقية.

فالحرّ والعبد، النبيل والعامّي، البارون الإقطاعي والقنّ، المعلّم [3] والصانع، باختصار: المضطهِدون والمضطهَدون، المتعارضون دوما، كانت بينهم حرب مستمرّة، معلنة تارة، ومستترة طورا، حرب تنتهي دائما إمّا بتحوّل ثوري لكامل المجتمع أو بانهيار الطبقتين المتصارعتين معا.

وخلال الحقب التاريخية الأولى نلاحظ في كل مكان تقريبا تنظيما كاملا للمجتمع إلى طبقات متمايزة، وتدرّجا سُلّميا للأوضاع الاجتماعية. ففي روما القديمة نجد النبلاء، ثم الفرسان، ثم العامة، ثم العبيد. وفي القرون الوسطى نجد الإقطاعيين الأسياد، ثم الإقطاعيين الأتباع، ثم المعلمين الحرفيين، ثم الصنّاع، ثم الأقنان. وإلى جانب ذلك، نجد داخل كل واحدة من هذه الطبقات نظام مراتب خاصا بها.

ولم يُلغ المجتمع البورجوازي الحديث القائم على أنقاض المجتمع الإقطاعي التناحرات الطبقية، بل أقام بدل القديم طبقات جديدة وظروف اضطهاد جديدة وأشكالا جديدة للصراع. بيد أنّ الذي يميّز عصرنا، عصر البورجوازية، هو تبسيط التناحرات الطبقية. فالمجتمع يسير باطراد نحو الانقسام إلى معسكرين شاسعين متعاديين، إلى طبقتين كبيرتين على طرفي نقيض: البورجوازية والبروليتاريا.

فمن أقنان القرون الوسطى ينحدر سكان التجمعات الحضرية الأولى، ومن هؤلاء المدينيين خرجت العناصر الأولى للبورجوازية. وقد جاء اكتشاف أمريكا

والطرق البحرية حول إفريقيا كي يمنح البورجوازية الصاعدة ميدانا جديدا للعمل. فأسواق البلاد الهندية الشرقية والصين واستعمار أمريكا والتبادل التجاري مع المستعمرات وتعدّد وسائل التبادل وتكاثر البضائع بصفة عامة، كل ذلك أتاح انطلاقة غير معهودة حتى ذلك الوقت للتجارة والملاحة البحرية والصناعة، وأمّن بالتالي نموًا سريعا للعنصر الثوري في المجتمع الإقطاعي الآخذ في الانحلال.

لم يعد نمط الإنتاج الصناعي القديم، الإقطاعي أو الحرفي، يفي بالحاجات المتزايدة باستمرار مع تزايد انفتاح الأسواق الجديدة، فحلّت المانيفاتورة[4] محلّه، وعوّضت البورجوازية الصناعية المتوسطة المعلّمين الحرفيين وترك تقسيم العمل بين هيئات الحرف المختلفة مكانه لتقسيم العمل داخل الورشة نفسها. إلاّ أنّ الأسواق ما انفكت تتسع وتتعاظم والطلب يزداد باستمرار، وأضحت المانيفاتورة نفسُها غير كافية. فجاء البُخار وجاءت الآلة لِيحدثا ثورة في الإنتاج الصناعي وعوّضت الصناعة الكبرى الحديثة المانيفاتورة وترك متوسّطو البورجوازية الصناعية المكان لكبار أثرياء الصناعة ولقادة جيوش صناعة حقيقية، بورجوازيي العصر الحديث.

وخلقت الصناعة الكبرى السوق العالمية التي هيّأ لها اكتشاف أمريكا. وعجلت السوق العالمية بصورة هائلة نمو التجارة والملاحة البحرية وطرق المواصلات. وهو نموّ أثّر بدوره في مجرى انتشار الصناعة، وكلما كانت الصناعة والتجارة والملاحة البحرية والسكك الحديدية تتطوّر وتنمو، كانت البورجوازية تكبر وتتعاظم مضاعفة رساميلها، دافعة إلى الوراء نحو مؤخرة الرّكح الطبقات التي خلفتها القرون الوسطى.

فالبورجوازية كما نرى هي نفسها نتاج لسياق تطوّر طويل ولسلسلة من الثورات في نمط الإنتاج ووسائل الاتصال.

وكان يقابل كل مرحلة من التطور تقطعها البورجوازية تقدّم سياسي مناسب يتحقق. فقد كانت في البداية فئة واقعة تحت اضطهاد الحكم الإقطاعي

الاستبدادي ثم كانت جماعة مسلحة تتولى إدارة نفسها بنفسها في إطار الكومونة[5]، فهنا جمهورية مدينية مستقلة وهناك "طبقة ثالثة" تدفع الجباية وتتعرض إلى السُخرة ضمن المملكة، ثم وفي خلال الطور المانيفاتوري كانت البورجوازية قوّة توازنُ ثقلَ قوّة النبلاء في الممالك ذات الحكم المقيَّد أو المطلَق وحجر الزاوية للممالك الكبرى بوجه عام، ومنذ أن توطّدت الصناعة الكبيرة وتأسست السوق العالمية استولت البورجوازية أخيرا على كل السلطة السياسية في الدولة التمثيلية الحديثة. فالحكومة الحديثة ليست سوى لجنة تدير الشؤون العامة للطبقة البورجوازية بأسرها.

لقد لعبت البورجوازية في التاريخ دورا ثوريا للغاية. فحيثما استولت على السلطة داست تحت أقدامها العلاقات الإقطاعية البطريركية والعاطفية، وحطّمت بلا شفقة جميع الروابط المعقدة والمتنوّعة التي تربط الإنسان في العهد الإقطاعي بـ"سادته الطبيعيين"، غير مبقية بين الإنسان والإنسان من علاقة سوى تلك المقامة على المصلحة الجافة، والشروط الصعبة لـ"الدفع بالحاضر". وأغرقت الحميّة الدينية والحماسة الفروسية وعاطفة البورجوازية الصغيرة في المياه الجليدية للحساب الأناني، وجعلت من كرامة الفرد مجرّد قيمة تبادلية، وأحلّت محل الحريات العديدة التي كان ثمن افتكاكها جد غال حرية وحيدة هي حرية التجارة التي لا ترحم وباختصار عوّضت الاستغلال المتستر وراء الأوهام الدينية والسياسية بآخر مكشوف، وقح، مباشر، فظ.

وجرّدت البورجوازية من هالتها كل الأنشطة التي كانت تعتبر موقرة حتى ذلك الوقت وتُنظر إليها بإجلال. وجعلت من الطبيب ورجل القانون والشاعر والعالم أجراء في خدمتها.

ومزّقت البورجوازية حجاب العاطفية الذي كان مسدولا عن العلاقات العائلية وحوّلتها إلى علاقات مالية صرف.

وبيّنت البورجوازية كيف أنّ ذلك الاستعراض الفظ للقوة الجسمانية في القرون الوسطى والذي شدّ ما نال إعجاب الرجعية يجد تكملته الطبيعية في منتهى

الكسل والخمول. وكانت البورجوازية هي أول من أظهر ما يستطيع إبداعه النشاط الإنساني. فقد أنشأت عجائب تختلف كل الاختلاف عن أهرامات مصر وقنوات المياه الرومانية والكنائس الغوطية، وقادت حملات لا تشبه في شيء الغزوات والحروب الصليبية.

إن البورجوازية لا يمكن أن تعيش من دون التثوير المستمر لأدوات الإنتاج، وبالتالي لعلاقات الإنتاج، أي لمجمل العلاقات الاجتماعية. وعلى العكس من ذلك، فإن إبقاء نمط الإنتاج القديم بدون تغيير كان بالنسبة لجميع الطبقات الصناعية السالفة الشرط الأول لبقائها. فهذا الانقلاب المتتابع في الإنتاج، وهذا التزعزع الدائم لكل العلاقات الاجتماعية، وهذا التحرّك والشعور بعدم الاطمئنان المستمران، هو ما يميّز عهد البورجوازية عن كل العهود السابقة. إنّ كل العلاقات الاجتماعية الجامدة والتي علاها الصدأ وما يواكبها من تصوُّرات وأفكار قديمة موقرة تصير إلى الاضمحلال والعلاقات المقامة حديثًا تشيخ قبل أن يبيس عودها. وكلّ ما كان له ثبات واستقرار يتبدّد كالدخان، وكلّ ما كان مقدّسا تتنهك حرمته، ويضطر الناس في النهاية إلى مجابهة ظروف معيشتهم، وفي علاقاتهم المتبادلة بعيون لا تغشاها الأوهام.

تنطلق البورجوازية نحو جميع أنحاء الكرة الأرضية تدفعها الحاجة الدائمة إلى أسواق جديدة. إن عليها التغلغل في كل مكان والاستثمار في كل مكان، وإقامة الصلات في كل مكان.

وباستثمار السوق العالمية تعطي البورجوازية لإنتاج كافة البلدان واستهلاكها صبغة كونية، وتجرّد الصناعة من أساسها الوطني، بين يأس الرجعيين وقنوطهم، فتتحطم الصناعات الوطنية التقليدية القديمة وما تزال تتحطم، لتحلّ محلها صناعات حديثة أصبحت إقامتها مسألة حياة أو موت بالنسبة لكل الأمم المتمدنة، ولم تعد تستعمل المواد الأولية المحلية، بل موادّ أوّلية قادمة من أبعد المناطق، ولا تستهلك منتجاتها داخل البلد نفسه فحسب بل وفي جميع أنحاء

العالم. وبدلا عن الحاجات القديمة التي كان يلبيها الإنتاج القومي نشأت حاجات جديدة يتطلب تسديدها منتجات الأقطار والمناخات الأكثر بعدا.

وعوض الانعزال الذي كانت تعيش فيه المناطق والبلدان مكتفية بذاتها تنمو علاقات عالمية وتقوم بين الأمم ارتباطات متبادلة.

ولا يقل الإنتاج الفكري شأنا عمّا يقال في خصوص الإنتاج المادي. فالأعمال الفكرية لأمّة ما تصبح ملكا مشتركا لجميع الأمم. ويصبح التفرّع والانغلاق القوميّان أمرا مستحيلا يوما بعد يوم. ومن تعدّد الأدبيات القومية والمحلية ينشأ أدب عالميّ.

وبفضل التحسّن السريع لأدوات الإنتاج، والمواصلات التي أصبحت غاية في السهولة تجرّ البورجوازية إلى تيّار المدنية كل الأمم، حتى أشدّها همجية. فإن رخص منتجاتها هو بمثابة المدفعية الضخمة التي تمكنها من تلم كافة الجدران الطبنيّة، وتجبر أشدّ البرابرة كرها للأجنبي إلى انحناء رؤوسهم أمامها. ودرءًا لموتها تجبر البورجوازية كل الأمم على قبول نمط الإنتاج البورجوازي وعلى أن تُدخل عندها المدنية المزعومة أي أن تصبح بورجوازية، وفي كلمة: هي تصوغ عالما على صورتها.

لقد أخضعت البورجوازية الريف للمدينة وأنشأت مدنا هائلة وزادت عدد سكانها زيادة مذهلة بالنسبة لسكان الأرياف، وبذلك انتشلت قسما كبيرا من السكان من بلادة الحياة القروية. وكما أنها أخضعت الريف للمدينة، والبلدان المتهمّجة أو نصف المتهمّجة للبلدان المتمدّنة فهي أخضعت الأمم الفلاحية للأمم البورجوازية، الشرق للغرب.

وتقضي البورجوازية أكثر فأكثر على تشتت وسائل الإنتاج والملكية والسكان. فلقد جمّعت السكان ومركزت وسائل الإنتاج وركّزت الملكية في أيدي أفراد قلائل. وكانت النتيجة المحتومة لهذه التغييرات هي المركزة السياسية. فإنّ مقاطعات مستقلة ذات طابع اتحادي فيما بينها لا أكثر، وذات مصالح وقوانين

وحكومات ومعاليم جمركية مختلفة وقع تجميعها في أُمة واحدة، بحكومة واحدة وتشريع واحد ومصلحة قومية طبقية واحدة وراء نطاق جمركي واحد.

لم يمض على الهيمنة الطبقية للبورجوازية أكثر من قرن خلقت خلاله قوى إنتاج أكثر وفرة وضخامة من كلّ ما صنعته الأجيال السابقة مجمّعة. فلقد وقع إخضاع قوى الطبيعة واستخدام الآلات وتطبيق الكيمياء في الصناعة والزراعة واستعمال الملاحة البخارية وسكك الحديد والتلغراف الكهربائي واستُصلحت قارّات بأكملها وأصلحت الأنهار وبرزت من جوف الأرض شعوب بأكملها. أيّ عصر سالف كان في حسبانه أنّ مثل هذه القوى المنتجة الهائلة كامن في قلب العمل الاجتماعيّ.

تبيّن لنا إذن ممّا سبق كون وسائل الإنتاج والتبادل التي قامت البورجوازية على أساسها قد نشأت داخل المجتمع الإقطاعي. ثم لمّا بلغت تلك الوسائل درجة معينة من النمو أصبحت الظروف التي يقوم فيها المجتمع الإقطاعي بالإنتاج والتبادل وأصبح التنظيم الإقطاعي للزراعة والمانيفاتورة، باختصار نظام الملكية الإقطاعية، كلها لا تتطابق مع القوى المنتجة المتنامية فنما، بل صارت تُعرقل الإنتاج عوض أن تدفعه، فتحولت إلى قيود وجب تحطيمها، فحُطّمت.

وعوّضتها المنافسة الحرّة يرافقها دستور اجتماعي وسياسي مناسب وهيمنة اقتصادية وسياسية للطبقة البورجوازية.

واليوم نشهد سيرورة مماثلة. فعلاقات الإنتاج والتبادل البورجوازية، ونظام الملكية البورجوازي، والمجتمع البورجوازي الحديث الذي أطلق وسائل الإنتاج والتبادل الهائلة، تُشبه الساحر الذي لم يعد يدري كيف يتحكّم في القوى الجهنمية التي استحضرها. فمنذ بضع عشرات السنين لم يعد تاريخ الصناعة والتجارة سوى تاريخ تمرّد القوى المنتجة الحديثة ضد علاقات الإنتاج الحديثة وضد نظام الملكية الذي يقوم عليه وجود البورجوازية وسيطرتها. ويكفي ذكر الأزمات التجارية التي بدورتها تهدّد أكثر فأكثر وجود المجتمع البورجوازي. وكلّ واحدة منها تأتي بانتظام على كمية لا فقط من المنتجات المصنوعة بعدُ بل

وكذلك على قسم كبير من القوى المنتجة القائمة نفسها. ويجتاح المجتمع وباء، لم يكن ليبدو في أيّ عهد آخر سوى خرافة غير معقولة، إنه وباء فيض الإنتاج. وفجأة يجد المجتمع نفسه قد رجع إلى حالة من الهمجية المؤقتة كأنّ مجاعة أو حرب إبادة قطعت عليه وسائل معيشته، وكأن الصناعة والتجارة أتى عليهما الدمار. ولم ذلك؟ لأن المجتمع صار له شيء كثير من المدنية، وسائل عيش، وصناعة، وتجارة، فوق الكفاية ولم تعد القوى المنتجة التي تحت تصرّفه تساعد على تطور علاقات الملكية البورجوازية بل بالعكس أصبحت على درجة عالية من القوة بالنسبة لتلك العلاقات التي أصبحت تشكل عائقا أمامها. وما إن تتخطى القوى المنتجة هذا العائق حتى ترمي بالمجتمع البورجوازي بأسره في الفوضى وتهدد وجود الملكية البورجوازية. لقد أصبح النظام البورجوازي أضيق من أن يحتوي الثروات الناشئة في صلبه. فكيف تتخطى البورجوازية هذه الأزمات؟ تتخطاها من ناحية بالتحطيم القسري لمقدار من القوى المنتجة، ومن ناحية أخرى بغزوها لأسواق جديدة وزيادة استثمارها للأسواق القديمة. فإلى أيّ شيء سيؤدّي ذلك؟ إنه سيؤدّي إلى تحضير أزمات أشمل وأهول والتقليل من حظ الوسائل الكفيلة بتلافيها.

فالأسلحة التي استخدمتها البورجوازية للإطاحة بالإقطاعية ترتدّ اليوم إلى نحر البورجوازية نفسها.

بيْد أنّ البورجوازية لم تكتف بصنع الأسلحة التي تردیها قتيلة بل أنتجت أيضا الرجال الذين سيستعملون تلك الأسلحة. إنهم العمال العصريون، البروليتاريا. وكلّما نمت البورجوازية، أي نما رأس المال، تتطور أيضا البروليتاريا، طبقة العمال العصريين الذين لا يعيشون إلاّ إذا وجدوا عملا وهم لا يجدونه إلاّ إذا كان منميا لرأس المال. هؤلاء العمال المُجبَرون على بيع أنفسهم يوما فيوما هم سلعة، هم مادة تجارية كغيرها، ويتعرّضون بالتالي لكل صروف المنافسة وتقلّبات السوق.

ونتيجة لاتساع استعمال الآلات ولتقسيم العمل فقدَ عمل العامل كل صبغة شخصية وأضاع كل جاذبية. وأصبح العامل مجرّد مُلحق بسيط بالآلة لا يُطلب منه سوى أبسط العمليات وأكثرها رتابة وقابليّة للتعلّم. وبذلك أصبح ما يكلّفه العامل هو تقريبا ما تكلّفه لوازم الاحتفاظ بحياته وتجديد نسله، والحال أن ثمن العمل، كثمن كل بضاعة، يُساوي تكاليف إنتاجه. فكلّما أصبح العمل باعثا أكثر على الاشمئزاز انخفضت الأجور، بل وفوق ذلك ينمو، مع تطوّر استخدام الآلة وتقسيم العمل، مجموع الجهد المبذول في العمل، إمّا بازدياد ساعاته، أو بزيادة المجهود المطالب إنجازه في مدة معيّنة من الزمن، أو بمضاعفة سرعة حركة الآلات، الخ.

لقد جعلت الصناعة العصرية من ورشة المعلّم الحرفي البطريركي الصغيرة ذلك المصنع الكبير للصناعي الرأسمالي. وخضعت جماهير العمال المتكدّسين في المصنع لتنظيم أشبه بالتنظيم العسكري. فمجرّد جنود للصناعة وقع وضعهم تحت رقابة سلسلة كاملة من المراتب المتدرجة من كبار الضبّاط وصغارهم. وهم ليسوا عبيدا للطبقة البورجوازية وللدولة البورجوازية فحسب لكن أيضا هم في كل يوم وكل ساعة عبيد للآلة ولرؤساء العمل، وللبورجوازي نفسه صاحب المصنع بوجه خاص. وكلما جاهر هذا الاستبداد أكثر بكون الربح يمثل هدفه الأوحد ازداد حقارة وبعث على مزيد الكره والمقت.

وكلّما قلّ تطلّب العمل للمهارة والقوة، أي كلّما ترقت الصناعة الحديثة، كانت الاستعاضة عن عمل الرجال بعمل النساء. وتفقد الفروق في السن والجنس أهميتها الاجتماعية بالنسبة للطبقة العاملة، فليس ثمة بعد سوى أدوات عمل تتغير كلفتها حسب العمر والجنس.

ومتى فرغ العامل من مقاساة استغلال صاحب المصنع وحُيِيَتْ له أجرته، يصبح فريسة لعناصر آخرين من البورجوازية: الملاك وبائع التفصيل والمرابي، الخ. الخ.

وإلى صفوف البروليتاريا بتدهور صغار الصناعيين والتجار وأصحاب الرّيع، والحرفيون والمزارعون، وكلّ الدرجات السفلى من الطبقة المتوسّطة، لأن رساميلهم الضعيفة لا تسمح لهم باستعمال أساليب الصناعة الكبيرة، فينحرون في مزاحمتهم لكبار الرأسماليين، ولكون مهارتهم الفنية من ناحية أخرى فقدت قيمتها أمام طرق الإنتاج الجديدة. وبهذه الصورة تتنتب البروليتاريا من كل طبقات السكان.

وتمرّ البروليتاريا في تطوّرها بمراحل مختلفة. ويبدأ صراعها ضد البورجوازية مع نشأتها.

يخوض الصراع في بادئ الأمر عمالٌ فرادى منعزلون ثم العمال المنتمون لنفس المصنع وأخيرا العمال المنتمون لنفس الفرع صناعي، في نفس المنطقة، ضد البورجوازي الذي يباشر استغلالهم. وهم لا يتّجهون بهجوماتهم إلى علاقات الإنتاج البورجوازية فحسب وإنما يوجهونها أيضا إلى أدوات الإنتاج نفسها، فيتلفون البضائع الأجنبية المزاحمة لهم، ويُحطّمون الآلات، ويحرقون المصانع، ويحاولون بالقوة استرجاع الموقع الذي خسره حرفيّ القرون الوسطى.

وعند هذه المرحلة تكون البروليتاريا عبارة عن كتلة مبعثرة عبر البلد تُفتّتها المُزاحمة. وإذا ما حصل أن تُساند العمال بحركة جماهيرية فان ذلك ليس بعدُ نتيجة لوحدتهم الخاصة ولكن لوحدة البورجوازية التي ينبغي لها ــ كي تبلغ مراميها السياسية ــ أن تحرّك البروليتاريا بأسرها، وهي ما تزال تملك القدرة مؤقتا على ذلك.

وطوال هذه المرحلة لا يُحارب البروليتاريون أعداءهم بل أعداء أعدائهم، أي بقايا المَلَكية المُطلَقة، وكبار الملاكين العقاريين والبورجوازيين غير الصناعيين وصغار البورجوازيين.

وهكذا تكون حركة التاريخ بكاملها متمركزة بين أيدي البورجوازية، ويكون كلُّ انتصار، في هذه الظروف، انتصارا للبورجوازية.

غير أن تطوّر الصناعة لا يؤدي إلى تزايد عدد البروليتاريا فحسب، بل يمركزهم أيضا في جماهير أوسع فتتعاظم قوة البروليتاريين ويزداد وعيهم بها. وتتساوى أكثر فأكثر مصالحهم وظروف عيشهم تبعا لما تقوم به الآلة من محو لكل فرق في العمل ومن نزول بالأجرة -في كل مكان تقريبا- إلى مستوى مُتماثل التدني. ونظرا لتزاحم البورجوازيين المتصاعد فيما بينهم وللأزمات التجارية الناجمة عن ذلك فإن أجور العمال يصبح يوما بعد يوم أكثر تقلبا ويجعل الإتقان المستمر للآلة، الذي يشهد سرعة تزداد باطراد، أوضاع العامل أكثر هشاشة وعدم استقرار يوما بعد يوم، وتأخذ المصادمات الفردية بينه وبين البورجوازي أكثر فأكثر صبغة الصدام بين طبقتين. ويبدأ العمّال بتكوين تكتلات[6] ضدّ البورجوازيين من أجل الدفاع عن أجورهم. ويذهبون إلى حدّ تشكيل جمعيات دائمة حتى يكونوا على أهبة أمام احتمال وقوع اصطدامات. ويتفجر الصراع، هنا وهناك، في شكل انتفاضة.

ومن وقت إلى آخر يحقق العمال انتصارا، لكنه قصير الأمد. ولا تكون النتيجة الحقيقية لنضالاتهم نجاحا مباشرا بقدر ما هي الاتحاد المتعاظم للشغيلة، الذي يساعد عليه تطوّر وسائل الاتصال التي خلقتها الصناعة الكبيرة فأتاحت للعمّال من مختلف المناطق أن يربطوا الصلة فيما بينهم. والحال أن ربط الصلة هذا كاف لمركزة عديد النضالات المحليّة التي هي ذات صبغة متماثلة، في صراع طبقيّ هو صراع سياسي، والإتحاد الذي كان سكان المدن في القرون الوسطى يقضون قرونا لتحقيقه عبر مسالكهم الوعرة تحقّقه البروليتاريا الحديثة خلال بضع سنين بفضل السكك الحديدية. إلاّ أن انتظام البروليتاريا في طبقة، وبالتالي في حزب سياسي، ما ينفك يتحطم باستمرار نتيجة لما يشق العمال من تزاحم. لكن هذا الانتظام لا يختفي حتى يظهر مجددا، وفي كل مرة يكون أشد قوة وأكثر صلابة وبأسا، ويستفيد من الانقسامات الداخلية للبورجوازية فيجبرها على

الإعتراف ببعض مصالح الطبقة العاملة في شكل قوانين كقانون يوم العشر ساعات عمل في انجلترا.

وعموما تساعد المصادمات التي تحدث داخل المجتمع القديم على تطوّر البروليتاريا وذلك بشتى الصور. فالبورجوازية تعيش في حالة حرب دائمة، في البداية ضدّ الأرستقراطية، ثم ضدّ تلك الفصائل من البورجوازية نفسها التي تتناقض مصالحها مع رقيّ الصناعة. وعلى الدوام، أخيرا، ضدّ بورجوازية البلدان الأجنبية كافة. وفي كل هذه الصراعات تجدها مضطرة إلى الإستنجاد بالبروليتاريا وطلب معونتها وجرّها بذلك إلى مضمار الحركة السياسية، وهكذا تزوّد البورجوازية البروليتاريين بعناصر تربيتها الخاصة [7]، أي بالأسلحة التي ستعود عليها.

أضف إلى ذلك، مثلما كنّا نرى، أن فصائل بكاملها من الطبقة المهيمنة تسقط نتيجة لتقدُّم الصناعة، ضمن البروليتاريا أو على الأقل تكون مهدّدة في ظروف معيشتها. وهي أيضا تحمل إلى البروليتاريا حشدا من عناصر تربيتها.

وأخيرا، عندما يقترب صراع الطبقات من الساعة الحاسمة تأخذ سيرورة انحلال الطبقة المهيمنة والمجتمع القديم بكامله طابعا عنيفا وحادا يجعل فصيلا صغيرا منها ينفصل عنها وينضمّ إلى الطبقة الثورية، إلى الطبقة التي تحمل في ذاتها المستقبل.

وكما انتقل قديما قسم من النبلاء إلى جانب البورجوازية، فإن قسما من البورجوازية ينتقل اليوم إلى جانب البروليتاريا، وبالخصوص أولئك المفكرون الذين ارتفعوا إلى حدّ الإدراك النظري لمُجمل الحركة التاريخية. ومن بين جميع الطبقات التي تقف الآن معارضة للبورجوازية تمثل البروليتاريا وحدها الطبقة الثورية حقا. إن الطبقات الأخرى تنهار وتهلك مع نموّ الصناعة الكبيرة، بينما البروليتاريا هي النتاجُ الأكثر أصالة لها.

فالفئات الوسطى من صغار الصناعيين وباعة التفصيل ومن حرفيين ومزارعين تحارب جميعها البورجوازية لأنها تمثل تهديدا لوجودهم كفئات وسطى. فهي إذن ليست ثورية بل مُحافظة، وأكثر من ذلك هي رجعية، تحاول أن تدير عجلة التاريخ إلى الوراء. وإذا قامت بأعمال ثوريّة فما ذلك إلا لخوفها من التدهور الوشيك إلى صفوف البروليتاريا. فهي بذلك تدافع عن مصالحها المقبلة لا عن مصالحها الحالية فتترك وجهة نظرها الخاصة، كي تتبنّى لنفسها وجهة نظر البروليتاريا.

أما البروليتاريا الرثة، هذا النتاج الجامد لعفن الشرائح السفلى من المجتمع القديم فيمكنها أن تجد نفسها هنا وهناك مجرورة إلى الحركة عن طريق ثورة بروليتاريّة، غير أن ظروف عيشها تؤهلها أكثر لأن تبيع نفسها للرجعيّة. إنّ ظروف عيش المجتمع القديم تكون قد اضمحلت بعد ولم يبق لها أثر في ظروف عيش البروليتاريا. ليس للبروليتاري ملكيّة، وعلاقاته مع زوجته وأطفاله لم يعد بينها وبين العلاقات داخل العائلة البورجوازية أيّ شبه. والعمل الصناعي الحديث، استعبد العامل من قبل رأس المال، في انجلترا كما في فرنسا وأمريكا وألمانيا، قد جُرّد البروليتاري من كل صبغة قوميّة. وما القوانين والأخلاق والدين في نظره سوى أحكام مسبقة بورجوازية تتستر وراءها مصالح البورجوازية.

إن كل الطبقات التي استحوذت على السلطة في الماضي كانت تحاول تعزيز المكانة التي حققتها بإخضاع المجتمع للشروط التي تضمن لها دخلها الخاص. ولا يستطيع البروليتاريون أن يحققوا تحكّمهم في القوى المنتجة الاجتماعية إلاّ بإلغاء أسلوب التملك الخاص بهم حاليا، وتبعا لذلك، إلغاء التملّك الساري حتى أيامنا هذه برمته. ولا يملك البروليتاريون شيئا حتى يحافظوا عليه ويحموه، فعليهم أن يهدموا كل ما كان يضمن ويؤمّن الملكية الخاصّة.

وإلى حدّ الآن كانت كل الحركات التاريخية تتجزها أقليات أو لصالح أقليات أمّا حركة البروليتاريا فهي الحركة القائمة بذاتها للأغلبية الواسعة لصالح

الأغلبية الواسعة. والبروليتاريا، الطبقة السفلى من المجتمع الحالي، لا يمكنها أن تنهض وتقف على قدميها دون أن تقوّض كلّ البنية الفوقية للشرائح التي تؤلّف المجتمع الرسمي.

وصراع البروليتاريا ضدّ البورجوازية، على الرغم من كونه في المضمون ليس صراعا وطنيا فإنه يكتسي شكله بادئ الأمر. ولا حاجة للقول بأنّ على بروليتاريا كلّ بلد أن تصفي حساباتها قبل كل شيء مع بورجوازيتها الخاصة.

وبعرضنا المجمل لأطوار نموّ البروليتاريا نكون قد تتبّعنا تاريخ الحرب الأهلية المستترة إلى حدّ ما والتي لا تنفك تنخر المجتمع الحالي حتى ساعة انفجار تلك الحرب في ثورة مفتوحة وإرساء البروليتاريا لهيمنتها عن طريق الإطاحة العنيفة بالبورجوازية.

إنّ كل المجتمعات السابقة قامت كما رأينا على التناحر بين الطبقات المضطهِدة والطبقات المضطهَدة. لكن لكي يتسنى اضطهاد طبقة ينبغي أن يكون في الاستطاعة تأمين شروط معيشة لها تمكنها، على الأقل، من الحياة تحت وطأة الاستعباد. فقد توصّل القنّ لأن يصبح عضوا في إحدى الكومونات ونظام القنانة في أوجه، كما ارتقى البورجوازي الصغير إلى مرتبة بورجوازي تحت نير الحكم الإقطاعي المطلق. أما العامل في عصرنا فعلى العكس من ذلك، بعيدا عن أن يرتقي برقيّ الصناعة، يظل دوما ينزل إلى أسفل، بل حتى إلى ما دون ظروف عيش طبقته نفسها. ويسقط الشغيل في الفاقة ويزداد الإملاق بنسق أسرع من ازدياد عدد السكان ونُموّ الثروة. فمن الواضح إذن أن البورجوازية لا يبقى في وسعها أداء دورها كطبقة حاكمة وفرض ظروف حياة طبقتها على المجتمع كقانون أعلى. هي لم تعد تستطيع الحكم لأنها أضحت عاجزة عن تأمين حياة عبدها في إطار عبوديته، لأنها مجبرة على تركه ينحطّ إلى درجة يتوجب عليها فيها هي أن تُطعمه بدل أن تطعم نفسها بواسطته. فلم يعد في وسع المجتمع الحياة تحت سيطرتها، وبعبارة أخرى لم يعد وجود البورجوازية متلائما قطّ مع وجود المجتمع.

إن الشروط الأساسية لوجود الطبقة البورجوازية وسيطرتها هي تكديس الثروة بين أيدي بعض الأفراد وتكوين رأس المال وإنماؤه. وشرط وجود رأس المال هو العمل المأجور. والعمل المأجور يقوم حصرا على تزاحم العمّال فيما بينهم. ورقيّ الصناعة الذي لست البورجوازية إلا خادمته دون إرادة أو مقاومة، يعوّض انعزال العمّال الناتج عن تزاحُمهم باتحادهم الثوري عن طريق الجمعيات. وهكذا يقوّض تقدّم الصناعة الكبيرة من تحت أقدام البورجوازية الأساس الذي شيّدت عليه نظام إنتاجها وتملّكها. إنّ البورجوازية تُنتج قبل كل شيء حفّاري قبرها. فهلاكها وانتصار البروليتاريا كلاهما أمر محتوم على حدّ السواء.

- II -

البروليتاريون والشيوعيون

ما هو موقف الشيوعيين من مجموع البروليتاريا عامة؟

إنّ الشيوعيين لا يشكلون حزبا خاصا معارضا لأحزاب العمال الأخرى.

وليست لهم البتة مصالح تفصلهم عن مصالح مجموع البروليتاريا. وهم لا يدعون إلى مبادئ خاصة [8] يريدون عليها قولبة الحركة العمالية.

والشيوعيون لا يتميزون عن بقية الأحزاب العمالية إلاّ في نقطتين:

1- هم يضعون في الصدارة و يُبرزون - في الصراعات التي يخوضها البروليتاريون من مختلف الأمم - المصالح المستقلة عن الجنسية والمشتركة لمجموع البروليتاريا.

2- كما هم يمثلون على الدوام وعبر مختلف الأطوار التي يقطعها الصراع بين بروليتاريين وبورجوازيين مصالح الحركة بمُجملها.

فالشيوعيون، إذن – من الناحية العمليّة - هم الفصيل الأكثر تصميما من بين الأحزاب العمالية لكل بلد، الفصيل الذي يدفع إلى الأمام كافة الفصائل الأخرى[9]. وعلى المستوى النظري يمتازون عن باقي البروليتاريا باستبصار واضح لظروف الحركة البروليتارية ومسيرتها وغاياتها العامّة.

أما الهدف المباشر للشيوعيين فهو نفس الهدف الذي ترمي إليه جميع الأحزاب العمالية، أي: تشكيل البروليتاريا في طبقة والإطاحة بسيادة البورجوازية واستيلاء البروليتاريا على السّلطة السياسية.

والتصوّرات النظرية للشيوعيين ليست مقامة البتة على أفكار ومبادئ ابتدعها أو اكتشفها هذا المُصلح من مصلحي العالم أو ذاك.

فما هي سوى التعبير الإجمالي عن الظروف الواقعية لصراع طبقيّ قائم الذات ولحركة تاريخية تعتمل تحت أنظارنا. ولا يمثل إلغاء علاقات الملكية التي وُجدت حتى الآن الطابع المميّز للشيوعية.

لقد تعرّض نظام الملكية لتغييرات وتحوّلات تاريخية مُتواصلة.

فالثورة الفرنسية مثلا قضت على المِلْكية الإقطاعية لصالح الملكية البورجوازية فالذي يميّز الشيوعية هو القضاء على الملكية البورجوازية وليس على الملكية بصورة عامة.

غير أن الملكية الخاصة في وقتنا الحاضر، أي الملكية البورجوازية، هي آخر وأكمل تعبير عن أسلوب الإنتاج والتملّك القائم على التناحرات الطبقية، وعلى استغلال بعض الناس لبعضهم الآخر [10].

وبهذا المعنى يمكن للشيوعيين أن يلخّصوا نظريتهم في الصيغة الوحيدة التالية: القضاء على الملكية الخاصة.

لقد عابوا علينا، نحن معشر الشيوعيين، أنّنا نريد إلغاء الملكية المكتسبة شخصيا بالعمل، الملكية التي يصرّحون بكونها أساس كل حرية وكل نشاط وكل استقلال فردي.

الملكية الشخصية، ثمرة العمل والاستحقاق ! هل يقصدون ذلك الشكل من الملكية السابق للملكية البورجوازية، الذي هو ملكية البورجوازي الصغير والمزارع الصغير؟ إن كانوا يقصدون ذلك فليست بنا حاجة إلى إلغائه لأنّ رقيّ الصناعة قد ألغاه ويواصل إلغاءه يوما بعد يوم.

أم هم يعنون الملكية الخاصة لوقتنا الحاضر، الملكية البورجوازية؟

لكن هل أن العمل المأجور يخلق للبروليتاريا ملكية؟ كلاّ، بل هو يخلق رأس المال، أي الملكية التي تستثمر العمل المأجور والتي لا يمكنها أن تنمو إلاّ شريطة الإنتاج المطّرد لعمل مأجور تستثمره من جديد. فالملكية في شكلها الحاليّ تتحرك بين الطرفين المتناقضين: رأس المال والعمل. فلنفحصهما.

إنّ كون المرء رأسماليا يعني أنه يحتل لا مكانة شخصية فحسب بل كذلك مكانة اجتماعية في الإنتاج. رأس المال هو نتاج جماعي فلا يمكن تحريكه وتشغيله إلا بالعمل المشترك لعديد الأفراد، بل لكل أفراد المجتمع، في نهاية التحليل.

فليس رأس المال قوّة شخصية إذن، بل هو قوّة اجتماعية. وعليه، فإذا تحوّل رأس المال إلى ملكية مشتركة لجميع أعضاء المجتمع، فلا يكون معنى ذلك أن ملكية شخصية قد تحولت إلى ملكية اجتماعية، بل كلّ ما هنالك أنّ الصفة الاجتماعية للملكية قد تغيّرت، أي فقدت صفتها الطبقية.

ولنصل الآن إلى العمل المأجور.

إن الثمن المتوسط الذي يُشترى به العمل المأجور هو الحدّ الأدنى للأجرة، أي مجموع وسائل العيش الضرورية للإبقاء على حياة العامل كعامل.

وبالتالي فإنّ ما يستملكه الأجير بكدّه لا يساوي إلاّ ما يلزمه بالضبط للاحتفاظ بوجوده في أبسط مدلولاته. نحن لا نريد البتة إلغاء هذا التملّك الشخصي لمنتجات العمل، اللازمة لتواصل الحياة البشرية، فهو تملّك لا يترك أقل فائض يتسلط المرء بواسطته على عمل الغير. ما نريده هو إلغاء أسلوب الإنتاج الكئيب المظلم، هذا الذي يجعل العامل لا يحيا إلاّ لإنماء رأس المال، ولا يحيا إلاّ بقدر ما تقتضيه مصالح الطبقة المهيمنة فحسب.

في المجتمع البورجوازي ليس العمل الحيّ سوى وسيلة لإنماء العمل المتراكم. أما في المجتمع الشيوعي فليس العمل المتراكم سوى وسيلة لتفريج حياة الشغيلة وإغنائها وتجميلها.

في المجتمع البورجوازي، الماضي يسيطر على الحاضر، أما في المجتمع الشيوعي فالحاضر يسيطر على الماضي.

في المجتمع البورجوازي، رأس المال مستقلٌ وشخصي بينما الفرد الكادح لا استقلالية له ولا شخصية.

إن القضاء على هذه الوضعية هو ما تصفه البورجوازية بالقضاء على الشخصية والحرية! وهي محقة في ذلك لأن الأمر يتعلق فعلا بالقضاء على الشخصية البورجوازية والاستقلالية البورجوازية والحرية البورجوازية.

إنهم يعنون بالحرية، في إطار الظروف الحالية للإنتاج البورجوازي، حرّية التجارة، حرّية أن تشتري وتبيع.

لكن إذا توارت التجارة تتوارى التجارة الحرّة أيضا. ومع ذلك، فإن كل الألفاظ الجميلة التي تردّدها بورجوازيتنا عن حرّية التجارة وكل صلفها وانتفاخها حول الحريات ليس لها من معنى إلاّ إذا قوبلت بالتجارة المقيّدة وبيورجوازي القرون الوسطى المُستعبَد، ولا يبقى لها معنى البتة حين يتعلق الأمر بما ترمي إليه الشيوعية من إزالة للتجارة ولنظام الإنتاج البورجوازي وللبورجوازية نفسها.

لقد هالكم وأفزعكم أننا نريد، إلغاء الملكية الخاصة، لكن الملكية الخاصة في مجتمعكم هذا قد أُلغِيَت بالنسبة للتسعة أعشار من أعضائه. وهي إن وُجدت لكم فبالتحقيق لكونها لا توجد بالنسبة للأعشار التسعة المذكورين.

أنتم تعيبون علينا إذن أننا نريد إلغاء شكل من الملكية لا يمكن له أن يوجد إلا شريطة حرمان الأكثرية الواسعة من المجتمع من كل ملكية.

وبكلمة واحدة، انتم تتهموننا بإرادة القضاء على ملكيتكم أنتم. وفي الحقيقة، ذاك ما نريده فعلا.

ما إن يغدو من المستحيل أن يتحوّل العمل إلى رأسمال ونقد وريع عقاري، باختصار إلى سلطة اجتماعية قابلة للاحتكار، أي بعبارة أخرى ما إن يصبح من المستحيل أن تتحوّل الملكية الفردية إلى ملكية بورجوازية حتى تعلنوا بأنّ الفرد قد أُلغي وأُبيدَ.

أنتم تعترفون إذن بأنكم حين تتحدثون عن الفرد لا تُعنون سوى البورجوازي، المالك البورجوازي. وهذا هو الفرد الذي ينبغي فعلا أن يُلغى ويُباد. إن الشيوعية لا تسلب أحدا إمكانية تملّك منتجات اجتماعية. وهي لا تنتزع سوى إمكانية استعباد عمل الغير بواسطة هذا التملّك. لقد أردفوا معترضين علينا بقولهم أنه بإلغاء الملكية الخاصة يتوقف كلّ نشاط ويعمّ العالم كسل شامل.

ولو كان ذلك كذلك لكان قد مرّ زمن طويل على سقوط المجتمع البورجوازي في وهدة التواني والخمول بما أن الذين يعملون في هذا المجتمع لا يكسبون والذين يكسبون لا يعملون. ويؤول كل الاعتراض إلى ترديد مملّ للقول بانتفاء العمل المأجور حيثما انتفى رأس المال.

وإلى إنتاج الأعمال الفكرية وتملّكها وُجّهت نفس التهم الموجّهة ضدّ الأسلوب الشيوعي لإنتاج المنتجات المادية وتملّكها. فكما أنّ زوال الملكية الطبقية يساوي، بالنسبة للبورجوازي، زوال كل إنتاج، فإنّ زوال الثقافة الطبقية يعني، بالنسبة له، زوال كل ثقافة. غير أن الثقافة التي يبكي البورجوازي على فقدانها ما هي عند الأكثرية الساحقة سوى ترويض يجعل منهم آلات.

ولكن من غير المجدي أن تطلبوا خصامنا إذا كان غرضكم تطبيق معيار مفاهيمكم البورجوازية عن الحرية والثقافة والحق، الخ. على إلغاء الملكية البورجوازية. إنّ أفكاركم هي نفسها نتاج علاقات الإنتاج والتملّك البورجوازية، كما أن الحقّ لديكم ليس إلا إرادة طبقتكم مُنتصبة بشكل قانون، إرادة تحدّد فحواها ظروف الحياة المادية لطبقتكم.

إن التصوّر الانتفاعي الذي يجعلكم تقيمون في شكل قوانين أزلية للطبيعة والعقل علاقاتكم الإنتاجية والاستهلاكية، وهي علاقات عابرة يمحوها سير الإنتاج، تشتركون فيه مع كل الطبقات الحاكمة التي انقرضت. وما تسلّمون به وتقرّونه بالنسبة للملكية القديمة، وبالنسبة للملكية الإقطاعية لم يعد في إمكانكم قبوله بالنسبة للملكية البورجوازية.

إلغاء العائلة ! حتى أشدّ الناس راديكالية يسخطون من هذه "النيّة الدنيئة" للشيوعيين.

فعلى أيّ قاعدة تقوم العائلة البورجوازية الحالية؟ على رأس المال، والربح الفردي. وهي بشكلها الكامل، لا توجد إلاّ عند البورجوازية فقط. لكنّ لازمتها هي الإلغاء القسري لكل عائلة، بالنسبة للبروليتاريا، والبغاء العلني.

والعائلة البورجوازية تضمحلّ طبيعيا باضمحلال لازمتها، وكلتاهما تختفيان باختفاء رأس المال.

أتعيبون علينا كوننا نريد القضاء على استغلال الأطفال من قبل أهلهم وذويهم؟ إن كان ذلك فنحن نعترف بهذه الجريمة! وتزعمون أننا نحطّم أشدّ الروابط حميميّة بتعويضنا للتربية التي تتولاها العائلة بتربية المجتمع.

وتربيتكم أنتم، أليس المجتمع هو الذي يحدّدها؟ الظروف الاجتماعية التي تربّون فيها أطفالكم، ألا يحدّدها تدخّل المجتمع بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن طريق المدرسة، الخ.؟ إن تأثير المجتمع على التربية أمر لا يستنبطه الشيوعيون، بل ما يفعلونه هو تغيير طابعه وانتزاع التربية من تأثير الطبقة المهيمنة ونفوذها.

إن تشدّق البورجوازيين الفارغ عن العائلة والتربية، وعن الروابط اللطيفة التي تجمع بين الطفل وذويه، أصبح مبعثا للاشمئزاز أكثر فأكثر، طالما أن الصناعة الكبيرة هدمت كل رابطة عائلية للبروليتاري وحوّلت الأطفال إلى مجرد سلع تجارة، مجرّد أدوات عمل.

لكنّ البورجوازية بكاملها تصيح من كل جانب: انتم معشر الشيوعيين تريدون إدخال مشاعية النساء!

ل ا يرى البورجوازي في امرأته شيئا آخر سوى أداة إنتاج، وهو يسمع ما يقال من أن أدوات الإنتاج ينبغي مشركتها فيستنتج بطبيعة الحال أن النساء سوف يعرفن نفس المصير.

ولا يدخل في وهم البورجوازي أن الأمر هو على العكس من ذلك تماما يتعلّق بانتزاع المرأة من دورها الحالي كمجرّد أداة إنتاج.

ثم لا شيء أبعث على السخرية من الذعر ما فوق الأخلاقي الذي تُوحيه إلى بورجوازيتنا مشاعية النساء الرسمية التي يزعمون أن الشيوعيين يدعون إليها. ليس الشيوعيون في حاجة إلى إدخال مشاعية النساء فهي قد وُجدت على الدوام تقريبا.

إن بورجوازيينا غير المكتفين بأن يكون على ذمّتهم نساء البروليتاريين وبناتهم، عدا البغاء الرسمي، يجدون لذة خاصة في إغواء زوجات بعضهم البعض.

وليس الزواج البورجوازي في حقيقة الأمر سوى مشاعية النساء المتزوجات. فعلى أقصى تقدير كان يمكن اتهام الشيوعيين كما هو الزعم أنهم يريدون الاستعاضة بمشاعية صريحة ورسمية عن المشاعية المتخفية وراء الرياء والمداجاة. وبديهي، فضلا عن ذلك، أنه بالقضاء على علاقات الإنتاج الحالية ستختفي مشاعية النساء الناجمة عنها، أي يختفي البغاء، سواء كان رسميا أو غير رسمي.

وبالإضافة إلى ذلك اتُّهم الشيوعيون بإرادة إلغاء الوطن والقومية. ليس للعمال وطن فلا يمكن سلبهم ما لا يملكون. وبما أنه على بروليتاريا كل بلد في المقام الأول أن تغتنك السلطة السياسية وأن تغدو الطبقة القائدة للأمّة [11] وأن تصبح

هي الأمّة، فإنها ما تزال بذلك بعدُ وطنية ولو قطعا في غير المعنى البورجوازي للكلمة.

وها هي ذي التباينات القومية والتناقضات بين الشعوب تزول يوما بعد يوم مع تطوّر البورجوازية، وحرية التجارة، والسوق العالمية، وتماثل الإنتاج الصناعي وظروف العيش المُنجرّة عن ذلك.

وعندما تستولي البروليتاريا على السلطة ستعمل أكثر من أجل إزالتها وسيمثل نضالها المشترك في البلدان المتمدّنة على الأقل أحد الشروط الأولى لانعتاقها.

أزيلوا استغلال الإنسان للإنسان تزيلوا استغلال أمّة لأخرى. ويوم يزول تناحر الطبقات داخل الأمّة يزول أيضا تعادي الأمم فيما بينها.

أمّا في خصوص الاتهامات الموجّهة بصورة عامة ضد الشيوعية من وجهات نظر دينية وفلسفية وفكرية فهي لا تستحق بحثا معمقا مستفيضا.

فهل من حاجة إلى تبصّر كبير حتى يدرك المرء بأنه مع كل تغيّر لظروف حياة البشر ولعلاقاتهم الاجتماعية ولوجودهم الاجتماعي تتغيّر أيضا أفكارهم وتصوّراتهم ومفاهيمهم أو باختصار وعيهم.

أيّ برهان يقدّمه تاريخ الأفكار سوى أن الإنتاج الفكري يتغيّر بتغيّر الإنتاج المادي؟ إن الأفكار المهيمنة لعصر ما لم تكن أبدا سوى أفكار الطبقة المهيمنة.

وعندما يقع الحديث عن أفكار تثوّر مجتمعا بأكمله فذلك لا يعني أكثر من أنه في رحم المجتمع القديم تكوّنت عناصر مجتمع جديد وأن انحلال الأفكار القديمة يسير جنبا إلى جنب مع انحلال ظروف المعيشة القديمة.

فعندما كان العالم القديم في طور انحداره وسقوطه انتصرت الديانة المسيحية على الديانات القديمة. وحين تركت الأفكار المسيحية في القرن الثامن عشر مكانها لأفكار الرقيّ كان المجتمع الإقطاعي يخوض معركته الأخيرة ضد

البورجوازية، الثورية آنذاك. ولم يكن ظهور الأفكار القائلة بحرية المعتقد والحرية الدينية إلاّ إيذانا بسلطان حرية المنافسة في ميدان المعرفة.

وقد يقولون: "دون شك، طرأ التعديل على الأفكار الدينية والأخلاقية والفلسفية والسياسية والحقوقية وغيرها عبر التطوّر التاريخي، لكن الدين والأخلاق والفلسفة والسياسة والحقوق تحافظ دوما على بقائها خلال هذه التحوّلات. وهنالك فوق ذلك حقائق أزلية مثل الحرية والعدالة وغيرهما مشتركة بين كل الأنظمة الاجتماعية، بينما الشيوعية تلغي الحقائق الأزلية، تلغي الدين والأخلاق عوض تجديدهما، وذلك يناقض مسار التطور التاريخي السابق بأكمله".

ففيما تتلخص هذه التهمة؟ إن تاريخ كل مجتمع حتى الآن قام على التناحر الطبقي الذي اكتسى، من عصر إلى عصر، أشكالا مختلفة.

بيد أنه مهما كان الشكل الذي اكتساه هذا التناحر فان استغلال جزء من المجتمع لجزئه الآخر هو أمر مشترك بين جميع العهود الماضية. فلا غرابة إذن أن نرى الوعي الاجتماعي لجميع العصور رغم كلّ تنوّعه واختلافه يتحرّك ضمن أشكال مشتركة معيّنة، أشكال للوعي لا تتحلّ تمام الانحلال إلا بزوال تناحر الطبقات زوالا تاما.

إن الثورة الشيوعية تمثل القطيعة الأكثر جذرية مع النظام التقليدي للملكية فلا غرابة إن هي قطعت بالصفة الأكثر جذرية، أثناء تطورّها، كل رابطة مع الأفكار التقليدية.

ولكن لندع عند هذا الحدّ ما تبديه البورجوازية من الإعتراضات على الشيوعية.

لقد رأينا أن أوّل خطوة في ثورة العمال هي تحوّل البروليتاريا إلى طبقة سائدة والظفر بالديمقراطية.

ستستخدم البروليتاريا سيادتها السياسية لتنتزع من البورجوازية شيئا فشيئا كلّ رأس المال ولمركزة جميع أدوات الإنتاج في أيدي الدولة، أي في أيدي البروليتاريا المنظمة في طبقة سائدة وللزيادة بأكثر سرعة في حجم القوى المنتجة.

ولن يتمّ ذلك طبعا في بداية الأمر إلاّ بخرقٍ عاتٍ وشديد لحقّ ولعلاقات الإنتاج البورجوازية، أي باتخاذ إجراءات تبدو من الوجهة الاقتصادية غير كافية وغير محتملة البقاء ولكنها في خلال الحركة تتخطى نفسها بنفسها [12]، وهي ضرورية لازمة كوسيلة لقلب نمط الإنتاج بأسره. وستكون هذه الإجراءات، طبعا، بالغة الاختلاف في مختلف البلدان.

إلا أنه بالنسبة للبلدان الأكثر تقدّما سيكون ممكنا بصورة عامة تقريبا تطبيق الإجراءات التالية:

1. نزع الملكية العقارية وتحويل الريع العقاري لتغطية نفقات الدولة.

2. فرض ضريبة على غاية من التصاعد.

3. إلغاء الوراثة.

4. مصادرة ممتلكات كل المهاجرين والمتمرّدين العُصاة.

5. مركزة القرض في أيدي الدولة بواسطة مصرف وطني رأسماله للدولة ويتمتع باحتكار مطلق.

6. مركزة جميع وسائل النقل في أيدي الدولة.

7. تكثير المانيفاتورات التابعة للدولة وأدوات الإنتاج واستصلاح الأراضي البور وتحسين الأراضي المزروعة حسب مخطّط عام.

8. جعل العمل إجباريا للجميع، وتنظيم جيوش صناعية وذلك لأجل الزراعة على الخصوص.

9. الجمع بين العمل الزراعي والعمل الصناعي واتخاذ التدابير الرامية إلى القضاء على التمييز بين المدينة والريف [13].

10. جعل التربية عمومية ومجانية لجميع الأطفال ومنع تشغيل الأحداث في المصانع كما يجري اليوم، وربط التربية بالإنتاج المادي، الخ.

وما إن تختفي الفوارق الطبقية أثناء سير التطوّر، ويصبح كل الإنتاج ممركزا بين أيدي أفراد مشتركين حتى تفقد السلطة العمومية صبغتها السياسية، إذ أن السلطة السياسية بالمعنى الصحيح هي السلطة المنظمة لطبقة من أجل اضطهاد طبقة أخرى. فإذا ما كانت البروليتاريا، في صراعها ضد البورجوازية، تتنظم حتما في طبقة، وإذا ما انتصبت عن طريق ثورة كطبقة سائدة، وهدمت بالعنف، كطبقة سائدة نظام الإنتاج القديم فهي تهدم في نفس الوقت معه ظروف تناحر الطبقات وتهدم الطبقات عموما ومن ثمة تهدم هيمنتها هي كطبقة.

ومحلّ المجتمع البورجوازي القديم بطبقاته وتناحره الطبقي يبرز مجتمع جديد تكون حرية التطور والتقدم لكل عضو فيه شرطاً لحرية التطور والتقدم لجميع أعضاءه.

- III -

الأدب الاشتراكي والشيوعي

1. الاشتراكية الرجعية

أ) الاشتراكية الإقطاعية

لقد وجدت الارستقراطيتان الفرنسية والانجليزية نفسيهما مدفوعتين بحكم وضعيتهما التاريخية إلى كتابة الرسائل الهجائية ضد المجتمع البورجوازي. ففي ثورة جويلية 1830 الفرنسية وفي الحركة الانجليزية من أجل الإصلاح كانتا قد غُلبتا على أمرهما مرة أخرى تحت ضربات هذا الوافد الجديد البغيض. ولم يعد في وسعهما أن يتكلّما عن نضال سياسي جدّي ولم يبق لديهما سوى النضال الأدبي. ولكن حتى في الميدان الأدبي فإن التشدّق الكلامي لعهد رجوع الملكية[14] أضحى مستحيلا. فلكي تخلق الارستقراطية لنفسها تعاطفا وجب أن تتظاهر بعدم النظر لمصالحها الخاصة وبتوجيه اتهاماتها ضد البورجوازية خدمة فحسب لمصلحة الطبقة العاملة المستغلة. وبهذه الكيفية كانت تؤمّن لنفسها لذة السّخر بسيّدها الجديد والتجاسر على الدندنة في أذنه بنبوءات منشأمة عن مستقبل أيّامه.

هكذا نشأت الاشتراكية الإقطاعية خليطا من المراثي والأهاجي، من أصداء الماضي وأهاذير المستقبل الصماء. وإذا كان نقدها المرّ اللاذع والبارع يصيب البورجوازية أحيانا في الصميم فإن عجزها المطلق عن فهم مسيرة التاريخ المعاصر يبقى دوما مدعاة للسخرية.

وكان هؤلاء يلوّحون بجراب البائس المتسول حتى يجلبوا الشعب وراءهم، لكن ما إن يسارع الشعب وراءهم حتى يلحظ الشعارات الإقطاعية القديمة تزيّن مؤخرتهم فيتفرق بقهقهات عالية، خالية من غير الاستخفاف والهزء.

لقد قدّم هذا المشهد للعالم جزء من "اللِيجيتِيميين" الفرنسيين و"انجلترا الفتاة" وعندما يُبيّن أبطال الإقطاعية أن نمط الاستغلال الإقطاعي كان شيئا آخر غير نظيره البورجوازي فهم لا ينسون غير شيء واحد: هو أن الإقطاعية كانت تستغل في ظروف وشروط مغايرة تماما ومضى اليوم زمانها. وعندما يلاحظون أن البروليتاريا العصرية لم تكن موجودة في ظل النظام الإقطاعي فهم لا ينسون سوى شيء واحد: كون البورجوازية العصرية نفسها ليست سوى الوليدة الحتمية لنظامهم الاجتماعي.

ولا تكاد تخفى، من جهة أخرى، الطبيعة الرجعية لانتقاداتهم حتى أن اعتراضهم الرئيسي على البورجوازية هو تماما القول بكونها تؤمّن تحت نظامها نموّ طبقة سوف تقوّض كل النظام الاجتماعي القديم.

هم يعيبون على البورجوازية أنها أنتجت بروليتاريا ثورية أكثر من كونها خلقت البروليتاريا عامة.

وعليه فإنهم في الصراع السياسي يساهمون بصورة نشطة في جميع تدابير العنف ضد الطبقة العاملة، وتراهم في حياتهم العادية، رغم تشدقهم اللفظي المفخّم، يُعنون جيّد العناية بقطف التفاح الذهبي الذي تنثره شجرة الصناعة[15] وبيع الوفاء والحب والشرف بالصوف وسكر الشمندر وكأس الخمرة[16].

وكما كان الكاهن والسيد الإقطاعي يسيران دوما اليد في اليد، فإن الاشتراكية الكهنوتية تسير جنبا إلى جنب مع الاشتراكية الإقطاعية.

وليس أسهل من أن يُطلى التزهّد المسيحي بطلاء من الاشتراكية. ألم تقم المسيحية هي أيضا ضد الملكية الخاصة والزواج والدولة؟ ألم تبشّر، عوضا عن ذلك بالإحسان والتسول والتبتّل وقتل الجسد وحياة الرهبنة والكنيسة؟ إن الاشتراكية المسيحية ليست سوى الماء المقدس الذي يسكبه الكاهن على غيظ الارستقراطية المتأجج.

ب) الاشتراكية البورجوازية الصغيرة

ليست الأرستقراطية الإقطاعية هي الطبقة الوحيدة التي قوّضتها البورجوازية، ولا هي بالطبقة الوحيدة التي تتوي وتفنى شروط وجودها في المجتمع البورجوازي الحديث. كان سكان المدن وصغار مزارعي القرون الوسطى أسلاف البورجوازية الحديثة، وفي البلدان التي تكون صناعتها وتجارتها لا تزال متأخرة تواصل هذه الطبقة حياة الخمول إلى جانب البورجوازية المزدهرة الصاعدة.

وفي البلدان التي ازدهرت بها المدنية الحديثة تألفت بورجوازية صغيرة جديدة تتأرجح بين البروليتاريا والبورجوازية وهي تتجدّد دون انقطاع كجزء مكمّل للمجتمع البورجوازي، لكن تحت مفعول المزاحمة يجد الأفراد المكوّنون لها أنفسهم يتساقطون على الدوام ضمن البروليتاريا، وأكثر من ذلك فهم يرون، مع النموّ المطّرد للصناعة الكبيرة، ساعة انقراضهم الكلي، كقسم متميّز من المجتمع الحديث، تقترب ليحلّ محلّهم في التجارة والصناعة والفلاحة نُظّار ومُستخدَمون.

ومن الطبيعي في أقطار مثل فرنسا حيث يؤلف المزارعون أكثر بكثير من نصف السكان أن يطيق الكُتّاب الذين يناصرون البروليتاريا ضد البورجوازية معايير بورجوازية صغيرة ومُزارعية في نقدهم للنظام البورجوازي وأن يكونوا اتخذوا موقفا لصالح العمال من وجهة نظر البورجوازية الصغيرة وعلى هذه الصورة تشكلت الاشتراكية البورجوازية الصغيرة. وسيسموندي هو زعيم هذا الأدب لا في فرنسا فحسب بل في انجلترا أيضا.

وقد حلّلت هذه الاشتراكية بكثير من الحذق التناقضات اللصيقة بنظام الإنتاج الحديث وكشفت القناع عن تقاريظ الاقتصاديين الريائية، وأثبتت بشكل مفحم النتائج القتّالة لإدخال الآلة ولتقسيم العمل، وتمركز رؤوس الأموال والملكية العقارية وفيض الإنتاج والأزمات والتدهور المحتوم للبورجوازيين الصغار والمزارعين وبؤس البروليتاريا والفوضى في الإنتاج والتفاوت الصارخ في

توزيع الثروات وحرب الإبادة الصناعية للأمم فيما بينها وانحلال الأخلاق القديمة والعلاقات العائلية القديمة والقوميات القديمة.

ولو حكمنا في هذه الاشتراكية وفق محتواها الحقيقي لرأينا إمّا أنها تنوي إعادة إقامة وسائل الإنتاج والتبادل القديمة ومعها نظام الملكية السابق وكل المجتمع القديم، وإمّا أنها تبغي حصر وسائل الإنتاج والتبادل الحديثة بالقوة في الإطار الضيق لنظام الإنتاج القديم الذي حطمته وكان لا بد أن تحطمه حتما هذه الوسائل الحديثة. وفي كلتا الحالتين تكون هذه الاشتراكية رجعية وطوباوية معا.

إدخال النظام الحرفي في الصناعة وإدخال النظام البطريركي في الزراعة: تلك هي كلمتها الأخيرة. وفيما بعد سقطت هذه المدرسة في الكساد الذي يتلو أيام السكر[17].

ج) الاشتراكية الألمانية أو الاشتراكية "الحقّة"

إن الأدب الاشتراكي والشيوعي الفرنسي الناشئ تحت ضغط بورجوازية مسيطرة كتعبير أدبي عن التمرّد على هذه السيطرة، دخل ألمانيا حين كانت البورجوازية هناك في بدء نضالها ضد الاستبداد الإقطاعي المطلق.

وقد تهافت الفلاسفة وأنصاف الفلاسفة والمتأدّبون الألمان بشراهة على هذا الأدب ناسين فقط أنه مع استيراد الأدب الفرنسي لم يتم إدخال ظروف الحياة الفرنسية وأوضاعها الاجتماعية. ففقد هذا الأدب الفرنسي كل دلالة عملية مباشرة بالنسبة لظروف الحياة الألمانية واتخذ صبغة أدبية صرفة، ولم يعد يبدو قط إلا كعبث فكري عديم الفائدة حول تحقيق الطبيعة البشرية. وهكذا لم تكن مطالب الثورة الفرنسية الأولى في نظر فلاسفة القرن الثامن عشر الألمان سوى مطالب " العقل العملي" بوجه عام، ولم تكن مظاهر إرادة البورجوازيين الثوريين الفرنسيين تعبّر في نظرهم إلا عن قوانين الإرادة الخالصة المحض، الإرادة كما يجب أن تكون، الإرادة الإنسانية حقا.

وانحصر عمل الأدباء الألمان الوحيد في التوفيق بين الأفكار الفرنسية الجديدة وإدراكهم الفلسفي القديم أو بالأحرى في استيعاب الأفكار الفرنسية بجعلها مطابقة لوجهة نظرهم الفلسفية.

وقد تم استيعابهم لها كما يفعل المرء مع لغة أجنبية، أي بالترجمة، ومعروف كيف كان الرهبان يأخذون مخطوطات المؤلفات الكلاسيكية للعصور الوثنية القديمة ويخطونها بخرافات سخيفة عن القديسين الكاثوليك. وعلى عكس ذلك تماما كان يشأن الأدباء الألمان مع الأدب الفرنسي الدنيوي. فقد دسوا غباوتهم الفلسفية تحت الأصل الفرنسي، فأخذوا مثلا الانتقاد الفرنسي لنظام المال وكتبوا تحته "انتزاع الطبيعة البشرية" وتحت الانتقاد الفرنسي للدولة البورجوازية كتبوا "إلغاء سلطان الكونية المجردة"، وهلمجرا.

وبعد ما أبدلوا الشروح الفرنسية بهذه التعابير الفلسفية المنمّقة الفارغة أطلقوا على عملهم أسماء مثل "فلسفة العمل" و"الاشتراكية الحقة" و"علم الاشتراكية الألماني" و"التبرير الفلسفي للاشتراكية"، الخ.

وبهذه الصورة سلبوا الأدب الاشتراكي والشيوعي الفرنسي جوهر قوّته. وبما أنه لم يعد بين أيدي الألمانيين يعبّر عن صراع طبقة ضد أخرى فقد أخذ هؤلاء يهنئون أنفسهم بكونهم سمَوْا فوق "المستوى الفرنسي الضيق" وبكونهم دافعوا لا عن الحاجات الحقيقية لكن عن الحاجة للحقيقة، لا عن مصالح البروليتاري وإنما عن مصالح الكائن الإنساني والإنسان بصفة عامة، الإنسان الذي لا ينتمي لأيّة طبقة ولا لأيّ واقع، والذي لا يوجد إلا في ضباب سماء الأهواء الفلسفية.

إلا أن هذه الاشتراكية الألمانية التي حملت محمل الجد بأبّهة كبيرة تمارينها غير البارعة التي تشبه تمارين تلاميذ المدارس والتي بوُقت لها بشعوذة جد صاخبة، قد فقدت براءتها الحذلقية شيئا فشيئا.

إن كفاح البورجوازية الألمانية ولاسيما البورجوازية البروسية ضد الإقطاعيين والملكية المطلقة أصبح، أو بعبارة أوجز، أصبحت الحركة الليبرالية، أكثر جدية من ذي قبل.

وبذلك وجدت الاشتراكية "الحقّة" الفرصة التي طالما تمنتها لمعارضة الحركة السياسية بالمطالب الاشتراكية. فهي تمكنت من كيل اللعنات التقليدية للنزعة الليبرالية والنظام التمثيلي والمزاحمة البورجوازية وحرية النشر البورجوازية والحقوق البورجوازية والحرية والمساواة البورجوازيتان، واستطاعت أن تبثّ بين الجماهير كونها لا تربح شيئا من وراء هذه الحركة البورجوازية بل على العكس سوف تخسر كل شيء. لقد نسيت الاشتراكية الألمانية في الوقت المناسب للغاية أن الانتقاد الفرنسي الذي كانت هي صداه التافه كان يفرض مسبقا وجود المجتمع البورجوازي الحديث مع ما يقترن به من ظروف المعيشة المادية المطابقة له ومن دستور سياسي مناسب وما إلى ذلك من الأمور التي ما زال على ألمانيا أن تعمل لتحقيقها وتحصيلها.

أمّا بالنسبة للحكومات المطلقة في ألمانيا، بحاشيتها من الكهنة والمربين والإقطاعيين والبيروقراطيين، فقد أصبحت هذه الاشتراكية الفزّاعة المنشودة ضد البورجوازية التي باتت تهدّدها.

وأضافت هذه الاشتراكية رياءها المتملّق إلى الرصاص والسياط التي كانت هذه الحكومات نفسها ترد بها على العمال الألمان المتمرّدين.

وإذا صارت الاشتراكية "الحقّة" هكذا سلاحا ضد البورجوازية الألمانية بين أيدي الحكومات فإنها كانت زيادة على ذلك تمثل بصورة مباشرة مصلحة رجعية هي مصلحة البورجوازية الصغيرة الألمانية والبورجوازية الصغيرة هذه التي خلّفها القرن السادس عشر، والتي منذ ذلك الوقت ما انفكت تتوالد دون انقطاع تحت أشكال مختلفة، تشكل بالنسبة لألمانيا القاعدة الاجتماعية الحقيقية للنظام القائم.

فإبقاؤها يعني الإبقاء على النظام القائم في ألمانيا، وتهدد السيادة الصناعية والسياسية للبورجوازية الكبيرة هذه البورجوازية الصغيرة بالهلاك الأكيد نتيجة تمركز الرساميل من جهة وظهور البروليتاريا الثورية من جهة أخرى. فبدا لهذه البورجوازية الصغيرة أن الاشتراكية "الحقّة" تستطيع ضرب عصفورين بحجر واحد، فانتشرت انتشار الوباء.

ومن شُفُوف النظريات المهلهلة صنع الاشتراكيون الألمان ثوبا فضفاضا مزركشا بأزهار دقيقة من فصاحتهم وميلا بأنداء العواطف الرقيقة الحارة وألبسوه لهيكل عظام "حقائقهم الأزلية" وهو ما زاد بضاعتهم رواجا بين مثل هذا الجمهور.

وقد أدركت الاشتراكية الألمانية من ناحيتها إدراكا مطردا بأنها نُذرت لكي تكون الممثل اللسن لهذه البورجوازية الصغيرة.

فأعلنت أن الأمة الألمانية هي خير أمّة أخرجت للناس وأن التافه، الضيق الأفق الألماني هو الإنسان النموذجي. وأضفت على رذائل هذا الإنسان النموذجي ونقائصه صبغة سحرية، معنى اشتراكيا عاليا يقلب دلالتها الحقيقية تماما، وذهبت حتى النهاية معلنة أنها تقاوم نزعة " التهديم الفظيعة" عند الشيوعية وأنها تحلّق محايدة فوق كل الصراعات الطبقية. وما عدا بعض الاستثناءات النادرة فإن جميع المؤلفات التي تزعم أنها اشتراكية أو شيوعية والمتداولة بألمانيا تنتمي إلى هذا الأدب القذر والمثير للأعصاب [18].

2 ـ الاشتراكية المحافظة أو الاشتراكية البورجوازية

يحاول قسم من البورجوازية العثور على علاج للعاهات الاجتماعية بغية تقوية دعائم المجتمع البورجوازي.

ويصطف في هذا الصنف رجال الاقتصاد والخيّرون والإنسانيون والأناس الذين يهتمّون بتحسين مصير الطبقات الكادحة وبتنظيم أعمال البرّ والإحسان

والرفق بالحيوانات وإقامة جمعيات الاعتدال والقناعة، وباختصار جميع المصلحين الذين يستوحون آراءهم الإصلاحية من فضاء غرفهم. وقد وصلوا إلى حد صياغة هذه الاشتراكية البورجوازية في منظومات كاملة.

لنذكر كمثال على ذلك "فلسفة البؤس" لبرودون.

يريد البورجوازيون الاشتراكيون بقاء ظروف العيش في المجتمع الحديث لكن على أن تخلو من الصراعات والأخطار التي تنشأ عنها حتما. هم يريدون المجتمع الحالي ولكن منقًى من العناصر التي تثوّره وتتخره وتحلّله.

إنهم يريدون البورجوازية ولكن بدون البروليتاريا. وتتصوّر البورجوازية، بالطبع، العالم الذي تسود فيه وتسيطر كأحسن العوالم. وتطوّر الاشتراكية البورجوازية هذا التصوّر المعزّي إلى منظومة على هذا الحد أو ذلك من الكمال. وهي عندما تدعو البروليتاريا إلى تحقيق نظمها وإتباع قواعدها والدخول بذلك إلى أرض الميعاد الجديدة فهي إنما تدعوها في الحقيقة إلى القناعة بالمجتمع الحالي ولكن مع التخلّي عن النظرة الحاقدة التي تنظر بها إليه.

وتحاول شكل آخر من الاشتراكية، أقل انتظاما لكنه عملي أكثر، أن يقزّز العمال من كل حركة ثورية مبيّنا لهم أن فائدتهم ليست في هذا التغيير السياسي أو ذاك وإنما فقط في تغيير ظروف الحياة المادية أي العلاقات الاقتصادية... ويجب الملاحظة بأن هذه الاشتراكية لا تعني البتة تغيير الظروف المادية وإلغاء علاقات الإنتاج البورجوازية الذي لا يمكن تحقيقه إلا بالثورة لكنها تعني فحسب تحقيق إصلاحات إدارية على أساس علاقات الإنتاج البورجوازية نفسها، وهي بالتالي إصلاحات لا تغير شيئا من علاقات رأس المال بالعمل المأجور بل كل ما تفعله هو أن تُخفّض عن البورجوازية نفقات حكمها وسيطرتها وتخفف عن ميزانية الدولة.

إن الاشتراكية البورجوازية لا تصل الغاية القصوى في التعبير عن كنهها إلا حين تصبح مجرّد صورة بلاغية.

التبادل الحرّ، لمصلحة الطبقة العاملة! حماية جمركية، لمصلحة الطبقة العاملة! سجون انفرادية، لمصلحة الطبقة العاملة! هذه هي الكلمة الأخيرة للاشتراكية البورجوازية، والوحيدة التي قالتها جادة غير هازلة.

إذ أنّ الاشتراكية البورجوازية، من أوّلها إلى آخرها، تجد تعبيرها في التأكيد على كون البورجوازيين هم بورجوازيين، لمصلحة الطبقة العاملة.

3 - الاشتراكية والشيوعية الانتقاديتان الطوباويتان

لا يتعلق موضوع البحث هنا بالأدب الذي أفصح في كل الثورات الحديثة الكبرى عن مطالب البروليتاريا (مثل كتابات بابوف وغيره).

فقد فشلت حتما المحاولة الأولى المباشرة التي قامت بها البروليتاريا لتحقيق مصالحها الطبقية الخاصة في وقت عمّ فيه الغليان، أثناء فترة الإطاحة بالمجتمع الإقطاعي، وبقدر ما يعود ذلك إلى الحالة الجنينية للبروليتاريا نفسها فهو يعود إلى الشروط المادية اللازمة لانعتاقها وهي شروط لا يمكن لها أن تنشأ إلا في العهد البورجوازي. وكان لا بدّ من أن يكون الأدب الثوري الذي رافق هذه الحركات الأولى للبروليتاريا ذا محتوى رجعي. وهو يدعو إلى زهد عام ومساواتيّة فظّة.

أما النظم الاشتراكية والشيوعية التي جاء بها سان سيمون و فوريي و أوين وغيرهم فقد ظهرت في الفترة الأولى من الصراع بين البروليتاريا والبورجوازية، وهي فترة وقع وصفها سابقا (راجع فصل " البورجوازيون والبروليتاريون").

وإذا كان صحيحا أن مبتدعي هذه النظم يدركون التناقض والتناحر بين الطبقات وكذلك فعل عناصر الانحلال في المجتمع السائد نفسه فهم لا يرون للبروليتاريا أيّة مبادرة تاريخية أيّة حركة سياسية خاصة بها.

وبما أن نموّ التناحر الطبقي يسير جنبا إلى جنب مع نموّ الصناعة فهم كذلك لا يتبيّنون بعدُ الظروف المادية اللازمة لانعتاق البروليتاريا ويأخذون في البحث عن علم اجتماعي، عن قوانين اجتماعية بهدف خلق هذه الظروف.

وفي محلّ الحركة الاجتماعية تراهم يستعيضون بنشاطهم الإبداعي، وفي محلّ الشروط التاريخية للانعتاق يضعون شروطا خيالية، وفي محلّ التنظيم التدريجي للبروليتاريا في طبقة يضعون تنظيما للمجتمع يختلقون تفاصيله من عندياتهم. ومستقبل العالم يتقرر في نظرهم بالدعاية لتخطيطاتهم المجتمعية وتطبيقها.

وهم عند وضعها مدركون أنهم يدافعون قبل كلّ شيء عن مصالح الطبقة العاملة بوصفها أكثر الطبقات تألّما وتعاسة. والبروليتاريا لا توجد عندهم إلا من زاوية كونها أكثر الطبقات تألمًا وتعاسة.

إلا أن الشكل الابتدائي لصراع الطبقات وكذلك وضعيتهم الاجتماعية الخاصة بحملاتهم على اعتبار أنفسهم بعيدين فوق كل تناحر طبقي، فيرغبون في تحسين وضع جميع أعضاء المجتمع قاطبة بما في ذلك أفضلهم حالا وأرقاهم امتيازا، ولذا هم لا ينفكون يوجّهون نداءهم إلى المجتمع بأسره دون تمييز بل إنهم غالبا ما يتجهون إلى الطبقة الحاكمة، إذ يكفي في نظرهم أن يفهم الناس نظامهم لكي يعترفوا بأنه أفضل مخطط ممكن لأفضل المجتمعات الممكنة.

فهم يُعرضون عن كل عمل سياسي وبالخصوص عن كل عمل ثوري ويسعون إلى بلوغ هدفهم بوسائل سلمية ويحاولون شق الطريق لإنجيلهم الاجتماعي الجديد بقوة المثال وبتجارب على مستوى صغير مآلها طبعا الإخفاق والفشل دائما.

إن هذا التصوير الخيالي للمجتمع المستقبلي، في طور ما تزال فيه البروليتاريا، الضعيفة التطور، تنظر إلى أوضاعها بصورة هي ذاتها خيالية، يتطابق والتطلعات الغريزية الأولى للعمال نحو تغيير المجتمع تغييرا تاما.

بيد أن هذه المؤلفات الاشتراكية والشيوعية تحتوي أيضا على عناصر انتقادية. فهي تهاجم المجتمع القائم في قواعده وأسسه. لذلك قدّمت في زمانها مواد جدّ قيّمة لتنوير العمال وتثقيفهم. وكانت التدابير العملية التي اقترحتها والخاصة بالمجتمع المستقبلي - مثل محو التعارض بين المدينة والريف [19]، وإلغاء العائلة والربح الخاص والعمل المأجور وإعلان التناسق والانسجام الاجتماعي وتحويل الدولة إلى مجرّد إدارة بسيطة تدير الإنتاج - كل هذه التدابير المقترحة لا تفعل سوى التعبير عن ضرورة زوال التناحر الطبقي، التناحر الذي لم يكن إلا في بداية ظهوره والذي لم يعرف منه واضعو هذه النظم بعد سوى أشكاله الأولى المبهمة الغامضة. ولذا فان هذه المقترحات ليس لها إلا معنى طوبوي صرف.

إن أهمية الاشتراكية والشيوعية الانتقاديتين الطوباويتين تتناسب عكسا والتطور التاريخي. فكلما احتدّ نضال الطبقات واتخذ شكلا واضحا، تفقد هذه الطريقة في التعالي عليه بالخيال وهذه المعارضة الخيالية له كل قيمة عملية وكل تبرير نظري. ولذلك إذا كان واضعو هذه النظم ثوريين في كثير من النواحي فإنّ الحلقات الضيقة المغلقة التي يكونها أتباعهم هي دائما رجعيّة لأنّ هؤلاء الأتباع يتشبّثون شديد التشبث بتصورات أساتذتهم القديمة تجاه التطور التاريخي المطّرد للبروليتاريا. لذا يحاولون، وهم في ذلك منطقيون مع أنفسهم، أن يخففوا من حدة صراع الطبقات وأن يوفقوا بين التناقضات. وما ينفكون يحلمون بتحقيق تدابيرهم الاجتماعية الطوباوية عن طريق التجربة وذلك بإقامة "الفالنستيرات"[20] المنعزلة، وإنشاء مستوطنات في الداخل ("هوم-كولوني") وتأسيس "ايكاريا" صغيرة تكون طبعة جيب عن أرض الميعاد الجديدة. وحتى يتم بناء جميع هذه القصور الهوائية الخيالية يجدون أنفسهم مُجبرين على الاستعانة بقلوب خيّري البورجوازية وجيوبهم. ويقعون شيئا فشيئا في عداد الاشتراكيين الرجعيين أو المحافظين الذين سبق وصفهم، ولا يعودون يتميّزون عنهم إلا بادعاء علمي أكثر انتظاما واتساقا، وباعتقاد يصل حدّ الخرافة والتعصّب في المفعول العجيب الخارق لعملهم الاجتماعي.

فهم لذلك يعارضون بعناد واستماتة كل حركة سياسية للطبقة العاملة، لأنها لا يمكن أن تصدر، حسب رأيهم، إلا عن ضعف في الإيمان الأعمى بالإنجيل الجديد. إن الاوبنيين في انجلترا يعارضون الشارتيين وأنصار فوريي في فرنسا يعارضون الإصلاحيين.

- IV -

موقف الشيوعيين من مختلف أحزاب المعارضة

يُتضح ممّا سبق في الفصل الثاني موقف الشيوعيين من الأحزاب العالمية المكوّنة بعد، وبالتالي فموقفهم واضح من الشارتيين في انجلترا والمصلحين الزراعيين في أمريكا الشمالية. إن الشيوعيين يناضلون من أجل المصالح والأهداف المباشرة للطبقة العاملة، ولكنهم في الحركة الحالية يدافعون في الوقت نفسه عن مستقبل الحركة ويمثلونه. ففي فرنسا يتحالف الشيوعيون مع الحزب الديمقراطي-الاشتراكي [21] ضد البورجوازية المحافظة والراديكالية مستبقين لأنفسهم حق نقد العبارات والأوهام التي خلّفتها التقاليد الثورية.

وفي سويسرا يؤيّدون الراديكاليين من دون أن ينكروا أن هذا الحزب يتكوّن من عناصر متناقضة، قسم منها اشتراكي ديمقراطي بالمعنى الفرنسي للكلمة، والقسم الآخر بورجوازي راديكالي.

وفي بولونيا يؤيّد الشيوعيون الحزب الذي يرى في الثورة الزراعية شرط التحرّر الوطني، أي الحزب الذي قام بانتفاضة كراكوفيا عام 1846.

وفي ألمانيا يناضل الحزب الشيوعي بالإتفاق مع البورجوازية كلما سلكت سلوكا ثوريا ضد النظام الملكي المطلق والملكية العقارية الإقطاعية والبورجوازية الصغيرة الرجعية.

ولكنه لا يتغافل لحظة عن إيقاظ شعور واضح وإدراك صريح لدى العمال بالتضاد العنيف القائم بين البورجوازية والبروليتاريا، حتى يعرف العمال الألمان، حين تدق الساعة، كيف يحوّلون على الفور الظروف السياسية والاجتماعية التي خلقها النظام البورجوازي إلى ما يعادلها من أسلحة ضد البورجوازية، كي يُمكن للصراع أن يُشهر عليها هي نفسها حالما يتم إسقاط الطبقات الرجعية في ألمانيا.

إن انتباه الشيوعيين مشدود إلى ألمانيا بصورة خاصة لأنها على أعتاب ثورة بورجوازية ولأنها ستنجز هذه الثورة في ظروف تكون فيها المدنيّة الأوروبية أكثر تقدّما ورقيًا ومع بروليتاريا يفوق تطورها، دون حد، ما كان في انجلترا القرن السابع عشر، وفرنسا القرن الثامن عشر. وبالتالي فإنّ الثورة البورجوازية الألمانية لا يمكنها أن تكون سوى المقدمة المباشرة لثورة بروليتارية.

وخلاصة القول فإنّ الشيوعيين يؤيّدون في كلّ بلد كلّ حركة ثورية ضد النظام الاجتماعي والسياسي القائم.

وفي كلّ هذه الحركات يضعون في الصدارة مسألة الملكية، مهما كانت درجة التطور التي بلغتها، كمسألة جوهرية للحركة.

وأخيرا يعمل الشيوعيون على الاتحاد والتفاهم بين الأحزاب الديمقراطية لكلّ البلدان.

ولا ينحطّ الشيوعيون إلى إخفاء آرائهم ومقاصدهم. ويُعلنون صراحة أن أهدافهم لا يمكن بلوغها إلاّ عبر الإطاحة العنيفة بكامل النظام الاجتماعي القائم. فلترتعد فرائص الطبقات الحاكمة أمام الثورة الشيوعية. فليس للبروليتاريين ما يفقدون سوى أغلالهم وقيودهم وسيربحون من ورائها عالما بأكمله.

يا عمّال العالم، اتحدوا!

حرّره ماركس وانجلز

في ديسمبر 1847 - جانفي 1848

هوامش

[1] تطلق البورجوازية على طبقة الرأسماليين العصريين، مالكي وسائل الإنتاج الاجتماعي ومستخدمي العمل المأجور. وتطلق البروليتاريا على طبقة العمال الأجراء العصريين الذين، بحكم حرمانهم من وسائل إنتاجهم الخاصة، هم مضطرون لكي يتمكنوا من البقاء إلى بيع قوة عملهم (ملحوظة انجلز- الطبعة الانجليزية 1888).

[2] أو بعبارة أدق التاريخ المكتوب. ففي 1847 كان عصر ما قبل التاريخ أو تاريخ النظام الاجتماعي الذي سبق كل التاريخ المكتوب غير معروف تقريبا. ومنذ ذلك الوقت اكتشف هاكستاوسين في روسيا الملكية المشاعة للأرض. وبيّن ماورير أنها القاعدة الاجتماعية التي انبثقت عنها تاريخيا كافة القبائل الألمانية ووقع شيئا فشيئا اكتشاف أن الكومونة الريفية، بامتلاك جماعي للأرض، كانت الشكل البدائي للمجتمع من بلاد الهند حتى ايرلندا.

وأخيرا وقعت تعرية هيكلة هذا المجتمع الشيوعي البدائي في خصائصه النموذجية باكتشاف مورغن الذي عرّف بالطبيعة الحقيقية للعشيرة ومكانتها في القبيلة. وبانحلال هذه التجمعات البدائية بدأ انقسام المجتمع إلى طبقات متمايزة وفي النهاية متضادة. وقد حاولت تحليل عملية الانحلال هذه في "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة"- الطبعة الثانية. شتوتغارت 1886 (ملحوظة انجلز بالطبعة الانجليزية 1888 والألمانية 1890).

[3] بمعنى عضو كامل الحق في هيئة حرفية، معلم السلك المهني لا رئيسه (ملحوظة انجلز- الطبعة الانجليزية 1888).

[4] المانيفاتورة: المعمل اليدوي.

[5] كما كان يسمّى سكان المدن في ايطاليا وفرنسا تجمعاتهم المدينية بمجرد ما يثترون أو يفتكون من أسيادهم الإقطاعيين حقوقهم الأولى في إدارة مستقلة (ملحوظة انجلز- الطبعة الألمانية 1890).

تحمل الطبعة الانجليزية لسنة 1888 الصادرة بإشراف انجلز بعد عبارة "جمهورية مدينية مستقلة" الكلمات التالية: "(كما في ايطاليا وألمانيا)" وبعد عبارة "الطبقة الثالثة الخاضعة للضرائب والسُخرة بلا رحمة" ما يلي: "(كما في فرنسا)".

[6] نجد في الطبعة الانجليزية لسنة 1888 كلمة " التكتلات" متبوعة بـ"التريدونيات".

[7] نجد في الطبعة الانجليزية لسنة 1888 بدلا من "عناصر تربيتها الخاصة" عبارة "عناصر تربيتها الخاصة السياسية والعامة".

[8] نجد في الطبعة الانجليزية لسنة 1888 بدلا من "مبادئ خاصة" عبارة "مبادئ فئوية".

[9] نجد في الطبعة الانجليزية لسنة 1888 بدلا من "الفصيل الذي يدفع إلى الإمام كافة الفصائل الأخرى" عبارة "الفصيل الأكثر تقدما".

[10] نجد في الطبعة الانجليزية لسنة 1888 بدلا من "استغلال بعض الناس لبعضهم الآخر" عبارة "استغلال الأقلية للأغلبية".

[11] نجد في الطبعة الانجليزية لسنة 1888 بدلا من "تعدو الطبقة القائدة للأمة" عبارة "تعدو الطبقة القومية".

[12] نجد في الطبعة الانجليزية لسنة 1888 إضافة "تجعل الهجمات اللاحقة ضد النظام الاجتماعي القديم ضرورية" لـ"تتخطى نفسها بنفسها".

[13] نقرأ في طبعة 1848 "تعارض بين المدينة والريف" وفي طبعة 1872والطبعات الألمانية اللاحقة وقع تبديل "تعارض" بـ"تمييز". وفي الطبعة الانجليزية لسنة 1888 وقع كتابة عبارات "التدابير الرامية إلى القضاء التدريجي على التمييز بين المدينة والريف" عوض "الزوال التدريجي للتمييز بين المدينة والريف بتوزيع متعادل للسكان داخل البلد كله".

[14] ليس المقصود هو رجوع الملكية الانجليزية لسنوات 1680-1669، وإنما رجوع الملكية الفرنسية لسنوات 1814-1830 (ملحوظة انجلز - الطبعة الانجليزية 1888).

[15] في الطبعة الانجليزية لسنة 1888 ترد عبارة "التفاح الذهبي" متبوعة بـ"الذي يسقط من شجرة الصناعة".

[16] هذا يهم رئيسيا ألمانيا حيث الارستقراطية الزراعية والمالكون العقاريون يستثمرون القسم الأوفر من أراضيهم لحسابهم الخاص بواسطة متصرفين. وهم في نفس الوقت مالكون كبار لمعامل سكر وخمور.

أما أغنى الارستقراطيين الانكليز فلم تبلغ بهم الحال هذه الدرجة بعد، إلا أنهم يعرفون هم أيضا كيف يعوضون عن هبوط الريع، بإيكال تمثيلهم إلى مؤسسي شركات خفية الاسم مشكوك فيها إلى هذا الحد أو ذاك (ملحوظة انجلز -الطبعة الانجليزية 1888).

[17] في الطبعة الانجليزية لسنة 1888 نجد ما يلي: "وانتهاء، عندما كنست الوقائع التاريخية الثابتة المفعول المتعتع للأوهام عن آخره، فإن هذا الشكل من الاشتراكية آل إلى كساد يرثى له" عوض "وفيما بعد سقطت هذه المدرسة في الكساد الذي يتلو أيام السكر".

[18] لقد كنست العاصفة الثورية لسنة 1848 هذه المدرسة الباعثة على الرثاء كلها وأزالت من لدى أتباعها الميل إلى متابعة استغلال صفة الاشتراكية. وكان

كارل غرون الممثل الرئيسي والنموذج الكلاسيكي لهذه المدرسة (ملحوظة انجلز - الطبعة الألمانية 1890).

[19] في الطبعة الانجليزية لسنة 1888 وقعت صياغة هذه الفقرة كما يلي: "الإجراءات العملية التي اقترحتها، على سبيل المثال، محو التعارض بين المدينة والريف..."

[20] الفالنستير اسم أطلقه فوريي على المجتمعات الاشتراكية التي تخيلها. وايكاريا اسم أطلقه كابي على بلد تخيله ثم على مستوطنة شيوعية أنشأها في أمريكا (ملحوظة 9 انجلز -الطبعة الانجليزية 1888). أما "الهوم كولوني" فهي التسمية التي أطلقها أوين على مجتمعاته الشيوعية النموذجية. وفالنستير هو اسم القصور الاجتماعية التي تخيلها فوريي. وأطلق كابي اسم ايكاريا على البلد الخيالي الطوباوي الذي وصف به مؤسساته الشيوعية. (ملحوظة انجلز -الطبعة الألمانية 1890).

[21] كان يمثل هذا الحزب في البرلمان ليدرو رولان، وفي الأدب لويس بلان، وفي الصحافة اليومية جريدة " لاريفورم". وقد أطلقوا اسم " الاشتراكي-الديمقراطي" على ذلك القسم من الحزب الديمقراطي أو الجمهوري، الذي يتصف لهذه الدرجة أو تلك باللون الاشتراكي. (ملحوظة انجلز - الطبعة الانجليزية 1888).

إن الحزب "الاشتراكي-الديمقراطي" في فرنسا كان يمثله على صعيد الحياة السياسية ليدرو رولان، وعلى صعيد الأدب لويس بلان. فلقد كان إذن بعيدا عن الاشتراكية-الديمقراطية الألمانية الحالية بعد السماء عن الأرض (ملحوظة انجلز -الطبعة الألمانية 1890).